


أحمد عثمان

مخطوطات البحر الميت

مكتبة الشروق




فهـــرست

الصفحة	الموضــــــوع

الموضـــــوع	الصفحة

الأسرار الحقيقية
وراء إخفاء مخطوطات كهوف قمران

أثار الإعلان عن اكتشاف مخطوطات عبرية وآرامية قديمة بمنطقة قمران فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، حماس الباحثين فى تاريخ الكتب المقدسة ، وراحوا ينتظرون العثور بينها على المعلومات التى يمكن أن تزيل الغموض عن مرحلة هامة من التاريخ الإنسانى . ذلك أن أقدم نسخة عبرية موجودة الآن من كتب العهد القديم ترجع إلى القرن العاشر بعد الميلاد ، وهى تتضمن اختلافات عديدة عن النسخة السبعينية اليونانية التى ترجمت فى الأسكندرية خلال القرن الثالث قبل الميلاد . أيهما أكثر صحة عند الاختلاف ؟ وأيهما يمكن الاعتماد عليه ؟ ولا يتوقف الأمر على الجماعات اليهودية ، فإن الكنائس المسيحية تعتبر العهد القديم جزءا من كتابها المقدس ، وبينما كان المسيحيون حتى القرن العاشر يستخدمون الترجمة السبعينية اليونانية فهم قد تحولوا عنها - باستثناء الكنيسة اليونانية - إلى ترجمة النسخة العبرية منذ القرن العاشر .

كما أن المعلومات التى وصلتنا عن السيد المسيح جاءت كلها من كتابات كتبت بعد نصف قرن من الوقت الذى حددته لوفاته ، وليس هناك نص واحد - ولو صغير - جاء فيه ذكر المسيح فى المصادر التاريخية المعاصرة للفترة التى قيل إنه عاش فيها ، بل إن كتب العهد الجديد

نفسها - وهى المصدر الوحيد عن تاريخ يسوع - تعطينا معلومات متضاربة فى شأن حياتــه ، ومماته فبينما يذكر إنجيل متى أن مولده كان أيام حكم الملك هيرود ، الذى مات فى العام الرابع قبل الميلاد ، فإن إنجيل لوقا يجعل مولده فى عام الإحصاء الرومانى ، أى فى العام السادس بعد الميلاد . والخلاف قائم كذلك على تحديد الوقت الذى انتهت فيه حياته الأرضية ، فبحسب ما ورد فى الأناجيل من معلومات ، هناك من يحدده فى العام الثلاثين أو فى العام الثالث والثلاثين أو السادس والثلاثين .

وبينما كان الاعتقاد سابقاً بأن كتبة الأناجيل كانوا هم أنفسهم من تلاميذ المسيح وحوارييه الذين عاصروه وكانـوا شهوداً على ما كتبوه من معلومات ، فقد تبين فى العصر الحديث أن أحداً منهم لم يره ، وأنهم جميعاً اعتمدوا فى رواياتهم على ما سمعوه عن آخرين أو ما فسروه من الكتابات القديمة .

وعلى هذا فإن العثور على كتابات قديمة ، سابقة ومعاصرة للفترة التى عاش فيها المسيح عيسى ، وفى منطقة لا تبعد إلا بضعة كيلومترات عن مدينة القدس التى قيل إنه مات فيها ، قد أنعش الآمال فى وجود معلومات بها تحل هذه الألغاز وتبين حقيقة الأمر فى تاريخ مؤسس الديانة المسيحية ، وعلاقته بالجماعات اليهودية الموجودة فى عصره ، وزاد

الحماس عندما تم نشر الأجزاء الأولى من المخطوطات فى الستينات ، وتبين أنها تنتمى إلى جماعة يهودية / مسيحية تعرف باسم العيسويين ، وأ نه كان لهم معلم يشبه فى صفاته عيسى المسيح . إلا أن الحماس الذى ساد بين الباحثين والقراء العاديين قابله قلق وخشية من جانب السلطات الدينية - وما يتبعها من هيئات أكاديمية - لدى كل من الطوائف اليهودية والمسيحية وليست دواعى هذا القلق تتعلق بالخوف من أن المعلومات المكتشفة قد تؤدى إلى إضعاف إيمان المؤمنين ، فهذه كتابات دينية قديمة ، وإنما ساد القلق بسبب ما قد تكشفه هذه النصوص من تغيير وتبديل - ليس فقط فى حقائق التاريخ القديم - وإنما فى تفسير النصوص الدينية وفى مغزاها كذلك . ولهذا فمنذ أن استولت السلطات الإسرائيلية على مدينة القدس القديمة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، توقفت أعمال نشر المخطوطات تماماً ، ولا يزال هناك ما يزيد عن نصفها غير منشور بل إن السلطات الإسرائيلية فى محاولة منها لإسكات الأصوات التى ارتفعت فى العالم كله - وكانت أقواها أصوات الباحثين اليهود أنفسهم - قد عمدت إلى القيام بتمثيلية مرسومة للتخلص من هذا الإلحاح ، فقد أرسلت سلطات الآثار الإسرائيلية صوراً فوتوغرافية ، زعمت أنها تمثل كل المخطوطات الموجودة فى متحف روكفلر بالقدس ، إلى جامعة أكسفورد البريطانية وكذلك إلى إحدى الجامعات الأمريكية ، وتظاهرت السلطات الإسرائيلية

بالغضب والاحتجاج عندما قامت هذه الجامعات بترجمة ونشر الصور التى فى حوزتها ، بدون تصريح رسمى من إسرائيل .

وكان الهدف من هذه التمثيلية هو الإيحاء بأن كل نصوص المخطوطات قد تم ترجمتها ونشرها ، ولم يعد هناك مبرر لمطالبة السلطات الإسرائيلية بالكشف عما فى حوزتها من كتابات . ومن المؤكد أن هناك بعض النصوص وبعض القصاصات التى لم تترجم بعد ، والتى يراد لها الاختفاء تماما فى ذاكرة النسيان مرة أخرى ، إلا أن الجزء الذى كان قد نشر فى البداية ، يكفى كى يبين لنا طبيعة الأسرار التى يحرص البعض على عدم الكشف عنها ، وهذا هو ما سنقوم به فى هذه الحلقات .

يطلق اسم (مخطوطات البحر الميت) على مجموعات المخطوطات القديمة التى تم العثور عليها فى ما بين ١٩٤٧ و ١٩٥٦داخل كهوف الجبال الواقعة غربى البحر الميت ، فى مناطق قمران ومربعات وخربة ميرد وعين جدى ومسادا . وكان للعثور خاصة على منطقة قمران - أو عمران - بالضفة الغربية للأردن ، على بعد عدة كيلومترات جنوبى مدينة أريحا منذ ما يقرب من نصف قرن أثر عميق على تفكير الباحثين اليهود والمسيحيين فى العالم كله ، أدى بلا شك إلى تغير كبير فى العديد من الاعتقادات التى كانت قائمة فى فلسطين ، ومع هذا فنحن لا نزال فى بداية الطريق ، ولن تظهر النتائج الكاملة لاكتشاف مكتبة قمران إلا بعد أن

تنشر كافة النصوص وتظهر دلالاتها الحقيقية أمام الباحثين .

لم تكد الحرب العالمية الثانية تنتهى ، عندما تم العثور على الكهف الأول فى ربيع ١٩٤٧ بالقرب من البحر الميت ، وكانت فلسطين لا تزال تحت الحماية البريطانية وما تزال مدينة القدس والضفة الغربية فى أيدى الفلسطينيين . فقد أضاع الصبى محمد الديب إحدى الماعز من قطيعه ، وكان ينتمى إلى قبيلة التعامرة التى تتجول فى المنطقة الممتدة بين بيت لحم والبحر الميت . وصعد الصبى فوق الصخر باحثا عن معزته ، فشهد فتحة صغيرة مرتفعة فى واجهة سفح الجبل ، وعندما ألقى محمد بحجر داخل هذه الفتحة سمعها تصطدم بمادة فخارية فى الداخل ، فأعاد الكرّة وألقى بعدة أحجار أخرى ، وكان فى كل مرة يسمع ذات الصوت الذى يحدث عند ارتطام الأحجار بالفخار . عند هذا تسلق محمد سفح الجبل وأطل برأسه داخل الكوة ، واستطاع فى ظلام الكهف أن يشاهد عدداً من الأوعية الفخارية مصفوفة على أرضية الكهف. وفى صباح اليوم التالى عاد محمد ومعه أحد أصدقائه إلى موقع الكهف ، الذى ساعده على الصعود إلى الكوة والدخول منها إلى الكهف ، الذى عثر بداخله على عدة أوعية فخارية بداخلها لفافات تحتوى على سبع مخطوطات .

وسرعان ما ظهرت المخطوطات معروضة للبيع عند تاجر للأنتيكات فى بيت لحم عرف باسم كاندو ، الذى باعها لحساب التعامرة ، فقام مار

أثاناسيوس صموئيل - رئيس دير سانت مارك للكاثوليك السوريين - بشراء أربع مخطوطات بينما اشترى الأستاذ إليعازر سوكينوك الثلاث الباقية لحساب الجامعة العبرية بالقدس . ولما قامت الحرب العربية الإسرائيلية على أثر إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ فى ١٥ مايو ، خشى أثاناسيوس على مصير المخطوطات التى اشتراها ، فأرسل المخطوطات الأربع إلى الولايات المتحدة لعرضها للبيع هناك إلا أنه فى النهاية وافق على بيعها مقابل ربع مليون فقط ، عندما اشتراها إيجال يادين - ابن الأستاذ سوكينوك - لحساب الجامعة العبرية فى القدس . وهكذا أصبحت المخطوطات السبع الأولى فى حوزة الجامعة العبرية الإسرائيلية .

وعندما تم إعلان الهدنة بين الدول العربية وإسرائيل فى ٧ يناير ١٩٤٩ ، أصبحت منطقة قمران والثلث الشمالى من منطقة البحرالميت تحت سيطرة المملكة الأردنية الهاشمية . وبدأ الأردنيون ينظمون عمليات أثرية للبحث عن المخطوطات ، وكان التعامرة يحتفظون بموقع الكهف سراً لا يبيحون به لأحد ، فتمكن الجيش الأردنى من العثور على الكهف فى نهاية يناير ١٩٤٩ .

بعدذلك نظم الأردنيون عمليات تنقيب دخل الكهف ، بإشراف هاردنج

البريطانى ، وكان يشغل مدير الآثار الأردنية ، والكاهن رولاند دى فو ، الذى كان مديراً للإيكول بيبليك دى فرانس بالقدس الشرقيـة . وعثر الأثريـون على مئات القصـاصات الصغيرة داخل الكهف ،إلى جانب قطع من الفخار والقماش والخشب ، ساعدت فى تحديد تاريخ المخطوطات .إلا أن عمليات التنقيب الأثرية لم تبدأ فى بقايا خربة قمران - التى تقع أسفل الكهف - إلا فى نوفمبر ١٩٥١ ، حيث تم العثور على أطلال القرية القديمة التى عاش بها العيسويون وبها بقايا رومانية من بينها عملات نقدية ، يشير تاريخها على أن هذا الموقع كان مسكوناً إلى أن قامت حركة التمرد اليهودية ضد الرومان فى الفترة ما بين ٦٦ و ٧٠ ميلادية ، والتى انتهت بحرق مدينة القدس وطرد اليهود من المنطقة المحيطة بها .

وطمعاً منهم فى الحصول على الربح المالى ، انتشر التعامرة فى كل وديان البحر الميت بحثا عن مخطوطات أخرى قد تكون مخبأة فى الكهوف العديدة الموجودة فى هذه المنطقة الجبلية ، وفى فبراير ١٩٥٢ استطاع البدو العثور على كهف آخر به العديد من المخطوطات التى تحللت إلى قصاصات صغيرة ، باعوها إلى السلطات الأردنية . واتبعت سلطات الآثار الأردنية نفس الطريقة التى اتبعها التعامرة فى البحث داخل كهوف البحرالميت عن المخطوطات ، وانتهى الأمر عام ١٩٥٦ باكتشاف مجموعة من أحد عشر كهفاً فى منطقة قمران تم ترقيمها ، وبينما عثر

التعامرة على أربعة كهوف ١ ،و٤ ،و٦ ،و١١ ، فإن الآثار الأردنية عثرت على السبعة الباقية .

كان المار أثاناسيوس قد سمح للمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية فى القدس - وهى التى قامت بالتحقق من القيمة الأثرية للمخطوطات - بتصوير ونشر المخطوطات الأربع التى فى حوزته ، وبالفعل قامت المدرسة أولا بنشر صور لهذه المخطوطات ما بين ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، حتى تسمح للباحثين بالاطلاع عليها ، ثم تبعت هذا بنشر ترجمة انجليزية لها . كما قامت الجامعة العبرية بنشر صور المخطوطات الثلاث التى حصلت عليها مع ترجمة لها عام ١٩٥٤.

أصبح الأب دى فو هو المسئول عن عمليات البحث الأردنية عن مخطوطات قمران ، وبالتالى عن عمليات إعداد وترجمة ونشر النصوص التى عثر عليها ، فئوكل قصاصات الكهف رقم ١ إلى « دومينيك بارثيلمى » و « ميليك » اللذين يعملان معه فى الإيكول بيبليك دى فرانس ، وبالفعل تم إعداد ونشر الترجمة الإنجليزية لها عن جامعة أكسفورد عام ١٩٥٥ . إلا أن الحكومة الأردنية قامت عام ١٩٥٣ بتشكيل لجنة عالمية من ثمانية باحثين - ليس بينهم عربى واحد - لتولى عملية إعداد المخطوطات ونشرها برئاسة دى فو ، وحضر جميعهم من فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وألمانيا إلى القدس للعمل .

بعد ذلك تم عام ١٩٦١ نشرت ترجمة المخطوطات التى عثر عليها فى كهوف منطقة مربعات (جنوبى منطقة قمران) التى ترجمها ميليك ، فى الجزء الثانى وتتضمن الجزء الرابع المزامير التى وجدت فى الكهف رقم ١١ عام ١٩٦٥ ، والجزء الخامس القصاصات التى عثر عليها فى الكهف رقم ٤ عام ١٩٦٨ .

وجدت كهوف فى مناطق أخرى غير قمران ، عثر بداخلها على مخطوطات قديمة ، فى مناطق الميرد فى الجنوب الغربى لقمران ومربعات فى الجنوب الشرقى وماسادا ، وهى القلعة اليهودية القديمة فى المنطقة الخاضعة لإسرائيل فى النصف الجنوبى للبحر الميت . فلم يكتف التعامرة بالتنقيب عن المخطوطات فى منطقة قمران بل إنهم راحوا يجوبون كل المنطقة الجبلية المطلة على البحر الميت بحثا فى كهوفها عن الكنز القديم . وفى أكتوبر ١٩٥١ عثر بدو التعامرة على مخطوطات مكتوبة بالعبرية واليونانية فى أحد الكهوف بوادى مربعات - حوالى ١٥ كيلومتراً جنوبى كهف قمران الأول - وعرضوها على السلطات الأردنية لشرائها وكذلك عثر التعامرة فى نفس الفترة على بعض الكتابات المسيحية فى منطقة الميرد القريبة من قمران ، من بينها كتابات سريانية ، كما قامت بعثة من الأثريين الإسرائيليين - بقيادة إيجال يادين - بالبحث عن المخطوطات فيما بين ١٩٦٣ و ١٩٦٥ ، فى بقايا قلعة ماسادا بالمنطقة التى تقع تحت سيطرتهم

فى الجنوب الشرقى من مدينة الخليل ، وتم العثور على بعض المخطوطات هناك ولكن الذى يهمنا هنا هو مخطوطات منطقة عمران بالتحديد ، التى تركتها طائفة العيسويين ، وليس الكتابات اليهودية والمسيحية التى وجدت فى باقى المناطق .

نشبت الحرب بين العرب وإسرائيل عام ١٩٦٧ ، التى كان من نتيجتها سقوط الضفة الغربية تحت السيطرة الإسرائيلية ، وكذلك متحف القدس الذى به المخطوطات ، ولم يفلت من هذا المصير سوى مخطوطة واحدة هى المخطوطة النحاسية لأنها كانت فى عمّان فى ذلك الوقت ، وتوقفت حركة النشر تماماً بعد ذلك .

العيسويون اليهود
ينشقون على كهنة المعبد

من هم أفراد الجماعة التى كانت تسكن فى برية قمران - فيما بين منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ومنتصف القرن الميلادى الأول - والتى تركت كتاباتها مخبأة فى كهوف البحر الميت ؟ أصبح من المتفق عليه الآن بين الباحثين ، أن المخطوطات التى تم العثور عليها فى قمران ، ما هى إلا مكتبة الجماعة القديمة المعروفة فى الإنجليزية باسم « إيسينز » ، إلا أن الخلاف لايزال قائما حول الأصل المحلى لهذه الكلمة ومغزاها يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى الطبعة الثانية من كتابه عن « حياة المسيح » ، الذى كتبه بعد الاطلاع على ما نشر فى الخمسينات من ترجمات للمخطوطات ، والمعلومات الأولى عن جماعة قمران : « لعل أرجح الأقوال التى خلصت إليها أكثر البحوث والمناقشات ، أن نساك صومعة القمران كانوا زمرة من الأسينيين - إحدى الطوائف المتشددة فى رعايتها للأحكام الدينية - وانتظارها للخلاص القريب بظهور المسيح الموعود ، وهذه هى الطائفة التى ذكرناها فى « عبقرية المسيح » ، فقلنا عنها ما فحواها أنها أقرب الطوائف الإسرائيلية إلى التطهر من أدران المطامع والشهوات ، وانهم كانوا ينتظمون فى النحلة على ثلاث درجات ، وإن أحدهم يقسم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم

عليه القسم بالحق أو بالباطل مدى الحياة ... وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ... (و) رجحنا أن الاسم مأخوذ من كلمة الآسى بمعنى الطبيب » .

اختلف الباحثون فى محاولة الوصول إلى أصل تسمية هذه الجماعة، واختار الأستاذ العقاد الرأى الذى قال بأنه مشتق من كلمة آرامية قديمة « آسى » بمعنى طبيب وأنا أختلف مع العقاد فى هذا الاختيار ، فضلاً عن أن جمع كلمة « آسى » لن يكون هو« إيسين » وإنما « آسيين » ، فإن هؤلاء النساك - وإن كانوا يستخدمون العقاقير لعلاج بعض الأمراض المستعصية - إلا أنهم لم يكونوا أطباء وليس هناك فى الكتابات القديمة التى تحدثت عنهم ، ما يفيد بأنهم اشتهروا بممارسة الطب .

ورد اسم الجماعة مكتوبا باللغة اليونانية فى كتابات فيلو جوداياس ويوسيفوس وبلينى الكبير ، وهو « إيسينوى » أو « إيسايو » واسم الشخص الذى ينتمى إليها هو« إيساوى » ، الذى احتار الباحثون فى معرفة أصله ، فالمشكلة الرئيسية التى تواجه الباحثين فى هذه الحالة أنه بالرغم من أن اسم هذه الجماعة مصدره كلمة محلية ، إلا أنه لم يتم العثور عليه مكتوباً إلا باللغة اليونانية ، ويكون علينا محاولة التعرف على الأصل المفقود .

ولقد اقترح الباحثون العديد من الكلمات العبرية والآرامية ، وليس

هناك اتفاق بينهم على كلمة بعينها للدلالة على هذه الطائفة التى كانت موجودة بفلسطين ، إلا أن هناك إشارات قوية إلى علاقة هذه الجماعة بتلاميذ النبى إشعيا .. الذين انفصلوا عن يهود المعبد وراحوا يعدون الطريق فى البرية لمجئ المخلص عند آخر الأيام (يوم القيامة) . واسم إشعيا بالعبرية « يشع يا » مثل « يشوع » و « يسوع » ومعنى كل هذه الأسماء واحد هو «خلاص الرب » واسم يسوع باليونانية - والذى هو عيسى بالعربية - يكتب « إيسو » . ويبدو أن اسم إشعيا نفسه قد أطلق على عدة تلاميذ للنبى إشعيا ، فقد توصل الباحثون إلى وجود ثلاثة أجزاء فى سفر إشعيا كتبت - على مدى قرنين من الزمان - ما بين القرن السادس والقرن الرابع قبل الميلاد . وعلى أى حال فمن المؤكد أن جماعة قمران كانت لها علاقة قوية بالنبى إشعيا ، حيث تم العثور فى مكتبتها على عدد كبير من كتاباته ، وكانوا يفسرونها تفسيرهم الخاص الذى احتفظوا به سرا ، وخاصة الأجزاء المتعلقة بأناشيد « عبد الرب » ومولد « عمانوئيل » ، وهى نفس النصوص التى اعتمد عليها كتبة الأناجيل فى الإشارة إلى ميلاد عيسى المسيح ، والتى وصفوها بأنها كانت نبوءات بما سيحدث للمعلم .

ولن يكون أمر التعرف على الكلمة الأصلية بهذه الصعوبة لو تذكرنا أن حرف العين الموجود فى اللغة العربية - وجميع اللغات السامية الأخرى -

يتحول إلى ألف فى اللغات الأوروبية ، ومن بينها اليونانية فكلمة « عرب » تتحول إلى « أرب » ، وكلمة « عمر » تتحول إلى « أومر » ، وكلمة «عيسى » تتحول إلـى « إيسا » ونحن لو استبدلنا الألف بالعين فى الكلمة اليونانـية ، لوجدنا أن الكلمة الأصلية التى تدل على عضو الجماعة تصبح « عيساوى » - وهى كلمة مستخدمة فى لغتنا حتى الآن - ويكون اسم الجماعة « عيسويين » .

وبحسب ماجاء فى كتاب بلينى عن التاريخ الطبيعى ، فإن هذه الجماعة كانت تسكن فيما بين مدينة أريحا فى وادى الأردن شمالاً ، ومدينة عين جدى على البحر الميت جنوباً ، وهو نفس المكان الذى يضم خربة قمران . فبعد عودة اليهود من بابل ، نجح الكهنة فى جمع الناس على الديانة اليهودية التى أقاموها استناداً إلى تفسيرهم الخاص لتوراة موسى ، والذى على أساسه أعادوا صياغة كتبهم ، ومع سماح الفرس لليهود بإعادة بناء معبد اليبوسيين بالقدس ، أصبح هذا المعبد هو المقر الرئيسى لكهنة اليهود يمارسون فيه شعائرهم .

وكانت العبادة اليهودية التى أقامها الكهنة ، تقوم على طقوس معينة - أهمها ذبح الأضحية - يقوم بها الكهنة فى المعبد كل يوم ، وبعضها يتم فى أيام السبت وفى الأعياد . وكان عامة اليهود مطالبين بتقديم جزء من نتاجهم عطية خاصة للمعبد . ولأن المناصب الكهنوتية كانت وقفا على

عائلات بعينها ، فلقد أصبح الكهنة يمثلون طبقة اجتماعية خاصة فى المجتمع ، استطاعت أن تحصل على ثروة كبيرة .

وكونت جماعة الكهنة فى تلك الفترة طائفة عرفت باسم الصدوقيين ».- صدوقيم - والتى كانت تضم التجار والأرستقراطيين عامة ، وكانوا هم المتحكمين فى الشعب عن طريق تحكمهم فى العبادة فليس هناك صلوات أو طقوس للعبادة اليهودية يمكن أن يقوم بها الأفراد بأنفسهم - سواء فى منازلهم أو فى أى معبد آخر - ويصبح الطريق الوحيد لمن يريد العبادة هوالحضور إلى معبد القدس وتقديم القرابين والعطايا إلى الكهنة . وكان الصدوقيون يعتقدون بأن الروح تموت مع موت الجسد ، وهم يقومون بتطبيق النصوص التوراتية تطبيقاً حرفياً ولا يرون ضرورة استخدام العقل والمنطق - مثل القياس - فى تفسيراتهم . وعلى ذلك فإن الصدوقيين لم يؤمنوا لا بخلود الروح ولا بالبعث بعد الموت أو الحساب ، ولا بوجود كائنات من الجن والملائكة ذلك أن التوراة قامت على جوهر من فكرة وحدانية الرب ورفض عبادة الأصنام أو أى أرباب أخرى ، أما الاعتقاد بالقيامة والحساب فى الآخرة بعد الموت فليس له وجود فى الكتب المنسوبة إلى موسى ، إنما وردت هذه الإعتقادات فى كتب الأنبياء - من أمثال إشعيا - وصارت جزءا هاما من تعاليمهم .

فبينما أقام الكهنة ديانتهم على كتب التوراة فقط ، وهى الكتب الخمسة

الأولى من العهد القديم - تكوين ..خروج .. لاويين .. عدد ... تثنية - مستبعدين كتب الأنبياء ، فإن العيسويين قد جعلوا تعاليم الأنبياء جزءا هاما من اعتقاداتهم وعندما أدى هذا العصيان إلى محاربة الكهنة لهم، فهم تركوا المدن الكبيرة وخرجوا للحياة بعيداً فى البرية والمدن الصغيرة ، وأصبحوا يمارسون عباداتهم سراً حتى لا يبطش بهم الكهنة .

وكان من نتيجة الشكل السرى الذى أقاموا عليه نظامهم خوفاً من سلطة الكهنة ، عدم وجود تفاصيل كثيرة عن هذه الطائفة تدلنا على كيفية نشأتهم ، إلا أننا نجد أخبارهم مسجلة فى كتابات « فيلو جودایاس » اليهودى السكندرى الذى عاش فى بداية التاريخ المسيحى و« يوسيفوس» المؤرخ الذى عاش فى فلسطين وكتب تاريخ اليهود للرومان عند نهاية القرن الميلادى الأول ، والرحالة اليونانى بلينى الكبير . ومن هذه الكتابات عرفنا أن هذه الطائفة كانت موجودة فى فلسطين ، فى المناطق القريبة من الجزء الشمالى الغربى للبحرالميت ، وبحسب الكتابات القديمة فإن هؤلاء العيسويين ، وإن كانوا يعتبرون يهودا ، إلا أنهم كانوا يختلفون عن باقى اليهود فى كونهم يؤمنون بخلود الروح ويؤمنون بالحساب فى الآخرة وهم لا يشتركون مع باقى اليهود فى تقديم الذبائح بالمعبد ، وكان عددهم لا يزيد عن أربعة آلاف عند بداية التاريخ الميلادى .

وينقسم العيسويون إلى قسمين ، قسم يعيش مثل الرهبان لا يتزوجون ، وقسم آخر يتزوج . ولكنهم جميعا يحاولون الابتعاد عن

الشهوات وملذات الحياة ، ويتنازلون عن أموالهم للجماعة ، فليس بينهم غنى ولا فقير إذ يشتركون جميعا فى ملكيتهم الجماعية وهم يعتبرون أن الوجود المادى للإنسان والمتمثل فى الجسد ، هو وجود مؤقت فانٍ ، وإنما الحياة الحقة لديهم هى الحياة الروحية لذلك فهم لا يخشون الموت بل يرحبون به ، ويرتدى العيسويون رداء أبيض .. وهم يستيقظون مبكراً حتى يؤدون الصلاة عند الفجر ، ثم يذهبون إلى أعمالهم التى هى عادة تتعلق بفلاحة الأرض ، وكانوا يقومون بصلاتهم الثانية عند غروب الشمس قبل أن يجلسوا لتناول الطعام الذى يتكون من الخبز ونوع واحد من الخضروات .

ويعتبر التطهر بالماء قبل الصلاة من أهم العادات التى حرص عليها العيسويون . ولم يكن من السهل الانضمام إلى جماعة العيسويين ، فهم لم يقبلوا النساء أعضاء فى طائفتهم ، وكان الراغب فى الانضمام إليهم يوضع أولاً تحت الاختبار مدة عام فإن ثبت صلاحه سمح له بعامين آخرين يشارك أثناءهما فى بعض الطقوس فقط ، ولا يصبح عضوا كاملا إلا بعد مرور ثلاث سنوات.

كان العيسويون يقضون معظم الليل فى قراءة كتبهم المقدسة ، والتى تتضمن - إلى جانب التوراة - كتب الأنبياء ، خاصة سفر إشعيا وهم يفسرون النصوص تفسيراً مجازيا وليس حرفيا ، ولذلك لا يفهم مغزى

كلامهم إلا من اطلع على أسرار تعاليمهم ، كما أنهم يحرمون على أعضائهم القسم إلا قسما واحداً عند قبولهم فى الجماعة ، وهو قسم على عدم البوح بأسرارهم ، ومن أهم تلك الأسرار كانت أسماء الملائكة التى كان عليهم حفظها ، ولم يكن باقى اليهود يعتقدون بوجود الملائكة .

وأدى الخلاف بين العيسويين والصدوقيين إلى ظهور طائفة جديدة لها اعتقادات وسط بين الجماعتين عرفت باسم « الفريسيين » فلقد أدى انتشار الفلسفة الأفلاطونية التى كانت تعتقد بوجود العالم الروحى الميتافيزيقى ، إلى أن الكثيرين من اليهود أصبحوا يعتقدون بعدم فناء الروح بعد الموت وكان الفريسيون يعتقدون بالقدرية - وهو أن كل شئ يحدث لنا إنما هو مكتوب ولا يمكن تغييره - ولكنهم كانوا أيضا يعتقدون بحرية الإرادة الإنسانية فى الاختيار ويقولون بأن الرب يساعد من يسير فى طريق الخير ، أما من يسلك طريق الشر فيتركه لاختياره هو ، وعلى ذلك فهم كانوا يقولون بأن أرواح الأشرار ستوضع فى سجن أبدى بعد الموت تعذب فيه إلى الأبد ، أما أرواح الأخيار فهى فى رأيهم تعود إلى الحياة فى جسد آخر .. أى أنهم كانوا يؤمنون بفكرة الحلول أو عودة الروح فى جسد آخر.

ومحاولة منهم إعطاء الشرعية لتفسيراتهم التى تختلف عن تعاليم الكهنة ، قال الفريسيون بأن الرب قد أعطى موسى - إلى جانب التوراة

المكتوبة ـ شريعة شفهية وصلت إليهم عن طريق تداول الأجيال ـ سجلوها بعدذلك فى التلمود ـ كما أنهم استخدموا العقل والمنطق فى تفسيرهم للنصوص .. حيث قالوا إن كل زمان له متطلباته ، فيصبح جوهر القانون هو المطلوب تنفيذه وليس شكله وحرفيته ومن أمثلة الحالات التى طبقوا فيها هذه الطريقة كانت قاعدة « العين بالعين » ، فهم قد توصلوا إلى أن القاعدة لم تعد فى زمانهم تتطلب بالضرورة قتل الجانى وإنما قد تتحول إلى تعويض المجنى عليه .

وكان الفريسيون هم الذين أقاموا الديانة اليهودية الربانية بعد ذلك عندما اختفت طائفة الكهنة على أثر تدمير الرومان لمعبد القدس عام ٧٠ ، حينما قتلوا جميع الكهنة إلا أنهم كانوا لازالوا يشتركون مع الصدوقيين فى فكرتهم عن شخص المسيح ودوره ، وهم الذين رفضوا نصارى عيسى وحاربوهم ووقفوا فى وجه دعوة العيسويين ، فقد كان اليهود ـ ولازالوا ـ منتظرين مسيحاً آخر غير عيسى ، يصبح ملكا عليهم ويحكمهم فى أبدية ، وعلى هذا فنحن نرى أن العيسويين ـ وإن كانوا يشكلون جزءا من مجتمع يهودا قبل تحطيم المعبد ـ إلا أنهم كانوا يختلفون عن باقى اليهود فى اعتقادهم بخلود الروح وبيوم القيامة عندما يعود معلمهم ليقود معركة أبناء النور ضد أبناء الظلام ، وينتصر المسيح العائد وينتهى الشر إلى الأبد . ولهذا يميل الكثير من الباحثين الآن إلى اعتبار العيسويين « يهود / مسيحيين » ، وهو ما سنعرف عنه أكثر بعد ذلك .

العثور فى قمران

على نماذج مختلفة من أسفار العهد القديم

كانت معظم الخلافات بين اليهود والمسيحيين الأوائل تتعلق بتفسير ما ورد فى كتب العهد القديم ، بخصوص المسيح المنتظر . وبينما اعتبر المسيحيون أن ماورد فى كتب الأنبياء فيما يتعلق بعبد الرب وابن الإنسان وعمانوئيل والنبى خليفة موسى ، إنما كانت كلها تتحدث عن عيسى المسيح وتبشر بقدومه ، قال اليهود إنها تتعلق بشعب إسرائيل وخلاصه، وإن مسيحهم ما زال منتظرا ، وكانت هناك بعض النصوص التى وردت بالترجمة اليونانية لكتب العهد القديم تختلف عما هو موجود بالكتب العبرية التى لدى اليهود، فأيهما أصدق ؟

بل إن هناك أسفاراً بأكملها وجدت فى النص اليونانى للعهد القديم ولم توجد بالنص العبرى ، وهى تتضمن تفاصيلا هامة فيمايتعلق بمجئ المخلص كما وأن الشخصية التاريخية للسيد المسيح لا يعرف اليهود عنها شيئاً ، فبخلاف ما ورد فى كتب العهد الجديد والذى يتعلق بمولد المسيح فى بيت لحم وحياته فى الناصرة وموته فى القدس ، فإن أحدا من المعاصرين لبداية القرن الميلادى الأول - سواء من اليهود أو الرومان - لم يذكر عنه شئ ، وتبين أن الفقرة التى وردت عنه فى كتابات « يوسيفوس »

إنما هى إضافة لاحقة قام بها أحد الناسخين المسيحيين .

لذلك فقد أثار العثور على مخطوطات قمران التى كتبت مابين القرن الثانى السابق الميلادى ومنتصف القرن الميلادى الأول ، الأمل فى وجود معلومات بها تحل هذه الألغاز وتفسر الأحداث تفسيراً تاريخياً . بل إن البعض كان يأمل فى العثور على نسخ قديمة من أناجيل العهد الجديد فى قمران ، أو على إشارة تتعلق بالحواريين .

ولكن الذى حدث كان يختلف تماما عن هذا كله ، فلا ذكر للسيد المسيح حيا فى هذه الفترة ، وإنما هناك جماعة شبه مسيحية تعيش فى قمران ، على بعد عدة أميال من القدس ، وهى تنتظر عودة معلمها الذى سبق له أن مات ، وتعتبر كهنة المعبد ممثلين للشيطان على الأرض ، ومسئولين عن موت معلمهم الصديق كما وأن الكتب التى قبلها المسيحيون ورفضها اليهود ، وجدت جميعها ضمن مكتبة العيسويين فى كهوف قمران .

كانت الجرار الفخارية التى حفظت بها المخطوطات ذات شكل خاص وحجم محدد ، فهى أسطوانية الشكل يزيد ارتفاعها قليلا عن نصف المتر ، مسطحة فى أعلاها وفى أسفلها وكان هذا النوع من الجرار ينتج عادة فى مصر خلال القرنين السابقين على العصر المسيحى ،مما يدل على أن

شكل الجرار ونظام حفظ المخطوطات فى داخلها كان مأخوذا عن العادات المصرية ، فلم يكن هذا النوع من الفخار ينتج فى فلسطين وكانت عادة حفظ المخطوطات فى داخل الجرار الفخارية هى عادة مصرية قديمة نشأت منذ عصر الملك رمسيس الثالث ، من الأسرة العشرين خلال القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، واستمرت حتى القرن الميلادى التاسع .

وجدت معظم مخطوطات قمران مكتوبة على رقائق من الجلد ، وإن كان بعضها مكتوبا على أوراق البردى وواحدة على رقائق نحاسية ، مكتوبة فى غالبيتها بالعبرية ، إلا أن هناك بعض الكتابات الآرامية واليونانية ، وتتفق طريقة الخط المستخدم فى الكتابة مع نتيجة الحفر الأثرى فى خربة قمران ، وكذلك نتيجة الفحص الذى تم عن طريق كربون ١٤ ، على أن هذه المخطوطات قد تم كتابتها فى ما بين القرن الثانى قبل الميلاد ومنتصف القرن الميلادى الأول . وبالطبع فإن هناك عددا كبيرا من المخطوطات يتضمن كتبا قديمة ترجع إلى تاريخ سابق ، وإن كان نسخها قد تم خلال هذه الفترة ، وتحتوى مكتبة قمران على ثلاثة أنواع من الكتابات : كتابات توراتية من أسفار العهد القديم ، وكتابات لأسفار لم تدخل فى قانون العهد القديم ، وكتابات جماعة قمران العيسوية .

بلغت الكتب التوراتية حوالى مائتى كتاب ، فقد عثر على عدد كبير من

أسفار كتب العهدالقديم - باستثناء كتاب استير - وإن كان بعضها لم يتبقَ منه إلا قصاصات صغيرة ، وأكثر نسخ وجدت لكتاب واحد كانت للمزامير التى بلغ عددها ٢٧ نسخة وسفر التثنية الذى وجدت منه ٢٥ نسخة ، ثم لسفر إشعيا الذى وجدت منه ١٨ نسخة .

أما الكتابات التى لا تدخل فى قانون العهد القديم فهى نوعان ، نوع يسمى « أبو كريفا » مثل سفر توبيت وسفر حكمة بن سيرا والجزء المكتوب باليونانية من رسالة إرميا ، وهذا النوع وإن لم يدخل فى قانون النص العبرى المازورى إلا أنه موجود فى النص اليونانى السبعينى ، والنوع الآخر عبارة عن بعض الأسفار التى تمت كتابتها فى الفترة مابين القرن الثانى السابق للميلاد ونهاية القرن الميلادى الأول ، رفض الأحبار اعتبارها بين كتبهم المقدسة وأصبحت تعرف باسم « بسوديبجرافا » . إلا أن الترجمة اليونانية لهذه الكتب حفظها المسيحيون - أحيانا بالسريانية أو الأرمينية أو الحبشية فى مخطوطات قمران - مثل عهود الأسباط الاثنى عشر وسفر إينوخ - مما يبين أن جماعة العيسويين كانت تدخلها ضمن مكتبتها .

كما وجدت كذلك كتابات تفسيرية ، تقوم بشرح الكتب المقدسة بطريقة الجماعة ، أى عن طريق المجاز وليس على أساس من حرفية النص كما كان الكهنة يفعلون . وجد عدد من الكتب تحتوى على تفسير لأسفار

العهد القديم ، تختلف أحيانا عن التفسيرات التى نجدها فى كتب التلمود ، فمثلا فى كتاب تفسير سفرالتكوين - أول كتب العهد القديم - نجد أن القصة التى جاءت فى التوراة بشأن زواج فرعون من سارة ، قد جاء تفسيرها على أن الملك المصرى هو الذى خطف سارة فأصابه المرض حتى اضطر إلى إرجاعها لزوجها إبراهيم : « عندما سمع حاركنوش (الأمير المصرى) كلام لوط (ابن أخى إبراهيم) ، ذهب إلى الملك وقال له : كل هذه الكوارث وهذا الكرب الذى أصاب سيدى الملك ، كان بسبب سارة زوجة إبراهيم اترك سارة ترجع إلى زوجها ، وسوف تختفى هذه الكوارث والقروح عنك ».

وإلى جانب الكتب الدينية فقد عثر فى قمران على كتابات تختص بجماعة العيسويين نفسها ، مثل « كتاب التلاميذ » و« مخطوطة دمشق » و« مزامير الشكر » و« مخطوطة الحرب » وبالرغم من أن أسفار التوراة الخمسة الأولى تنسب إلى موسى - الذى عاش فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد - وبالرغم من أن أسفار العهد القديم قد تم صياغتها فى شكلها النهائى فيما بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، فإن الترجمات الموجودة حاليا لهذه الكتب التوراتية - بما فى ذلك الترجمات العربية - تعتمد كلها على النص العبرى المازورى الذى يرجع إلى عام ١٠٠٨ ميلادية .

كان اليهود منذ أن سمح لهم قورش الفارسى ببناء معبد القدس ، وعودة الكهنة من بابل خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، يستخدمون التوراة - وهى الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم والتى تحتوى على تعاليم موسى - فى عباداتهم ، إلا أنه ظهرت بينهم كتابات أخرى عديدة مثل تلك التى تحكى تاريخ بنى إسرائيل بعد موسى ، إلى جانب الكتب المنسوبة إلى مجموعة من الأنبياء ظهرت فى مابين القرن العاشر والقرن السادس قبل الميلاد ، وكتابات الحكمة والمزامير .

وبينما كانت جماعة العيسويين تهتم بجميع هذه الأسفار ، حيث كانت تفسر توراة موسى على أساس من تعاليم الأنبياء وأشعار المزامير ، فإن كهنة المعبد كانوا يحصرون اهتمامهم على الأسفار الخمسة الأولى وعندما اختفت طائفة الكهنة بعد أن دمر الرومان معبد القدس عام ٧٠ ميلادية ، قام الفقهاء من أحبار اليهود ببناء الديانة اليهودية حول التعاليم التلمودية التى قالوا بها لتفسير التوراة ، حيث اعتقدوا بوجود توراة شفهية غيرالتوراة المكتوبة ، وصلتهم نقلا عن موسى ، وفسروا النصوص المكتوبة على أساسها .

وعندما ظهرت الديانة المسيحية الجديدة ، التى اعتمدت فى محاجاتها لليهود على ما جاء بكتابات الأنبياء والمزامير ، ظهر خلاف بينهم حول الأسفار التى يمكن اعتبارها من بين الكتابات المقدسة واجتمع عدد من

الأحبار عند نهاية القرن الميلادى الأول بمدينة صغيرة اسمها يمنية بالقرب من يافا على الساحل الفلسطينى ، وقاموا بمراجعة جميع الكتابات الموجودة لديهم وتقرير ما يمكن أن يدخل منها فى ما أصبح يعرف باسم « القانون » أى التى يمكن اعتبارها جزءا من العهد القديم ـ واستبعدوا الكتابات الأخرى ، وعلى هذا الأساس فإن النص العبرى الذى تم العثور عليه فى نهاية القرن العاشر والذى أصبح أساسا للترجمات الحديثة ، يعتمد على هذا القانون الذى تم اختياره وتجميعه عند نهاية القرن الأول للميلاد .

إلا أن الملك بطليموس الثانى (فلاديلفيوس) ـ الذى أنشأ مكتبة الإسكندرية ـ كان قد استحضر مجموعة من كتبة القدس إلى الإسكندرية خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، الذين جلبوا معهم كتبهم وتم ترجمتها إلى اللغة اليونانية ، والتى تعرف باسم النص السبعينى ولأن الكنيسة المسيحية استخدمت اللغة اليونانية منذ نشأتها فقد أصبح هذا النص السبعينى لكتب العهد القديم ، هو المستخدم لدى جميع الكنائس المسيحية حتى القرون الوسطى ، إلا أنه بعد ترجمة النص العبرى إلى اللاتينية واللغات الأخرى فى القرن السادس عشر ، تبين وجود عدة خلافات بينه وبين النص السبعينى ، مثل وجود أجزاء ناقصة أو زائدة ، وكذلك وجود بعض الاختلافات فى الكلام نفسه وفى أسماء الأعلام والتواريخ كذلك .

كما أن هناك أسفار فى المجموعة السبعينية اليونانية لكتب العهد القديم ، ليست موجودة فى القانون العبرى المازورى ، أصبحت الآن تعتبر من الكتب الدينية المشكوك فى صحتها والتى يطلق عليها اسم « أبو كريفا » وظل الخلاف قائما بين دارسى التوراة ، فبينما يصر بعضهم على صحة أحد النصوص وينكر الآخر ، يحاول آخرون التوفيق بينهما ، ولهذا فعندما تم العثورعلى مكتبة قمران فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، توقع الباحثون أن تكون هذه هى فرصتهم لحسم هذا الخلاف .

وأهمية الكتب التى عثر عليها فى قمران أنها ترجع - على الأقل - إلى القرن الثانى قبل الميلاد ، أى قريبا من الزمن الذى تمت فيه الترجمة السبعينية اليونانية ، وقبل أن يختار أحبار اليهود الكتب التى تدخل القانون ، ويقررون إعدام ما عداها .

وكان سفر إشعيا هو أول ما تم ترجمته من مخطوطات قمران ونشر عام ١٩٥٢، ولكنه لم يظهر سوى اختلافات بسيطة عن النص العبرى المازورى ، يمكن اعتبارها أخطاء إملائية أو اختلاف فى طريقة تركيب الجمل ، إلا أن الوضع تغير بعد ذلك عندما نشر فرانك مور كروس - أحد الخبراء المسئولين عن ترجمة النصوص - جزءا من سفر صموئيل جاء من الكهف (٤) ، وتبين أن هناك خلافاً جوهريا بينه وبين نظيره فى النص المازورى ، لكنه عندما قام بمقارنة هذا النص مع نظيره فى الترجمة

السبعينية اليونانية ، وجده يتفق اتفاقا كاملا معه ، إلا أن فرانك كروس عندما قام بترجمة جزء آخر من نفس المخطوط ، لاحظ وجود اختلاف فيه - ليس فقط مع النص المازورى - وإنما مع النص السبعينى كذلك ، وإن اتفق مع النص السامرى .

فهناك جماعة صغيرة من السامريين تعيش في منطقة نابلس ، لديها كتابها المقدس الذى يحتوى على الأسفار الخمسة الأولى فقط من كتب العهدالقديم ، تعتقد الجماعة بأن أصله يعود إلى أيام النبى موسى ، وهناك اختلافات عديدة بين ما ورد فى الأسفار السامرية وما جاء فى كل من النص العبرى المازورى واليونانى السبعينى . ومن بين نقاط الخلاف التى لها دلالة هامة ، ما يتعلق منها بالمدة التى قضاها بنى إسرائيل فى مصر ، فبينما يقول النص العبرى بأن بقاءهم فى مصر كان لمدة ٤٣٠ سنة ، فإن النص السامرى - ويتفق معه فى هذا النص اليونانى - يجعل هذه المدة تشمل بقاء بنى إسرائيل فى كنعان وفى مصر ، أى الفترة منذ مجئ إبراهيم إلى كنعان إلى خروج موسى إلى سيناء .

إلا أنه تم العثور على رقعة صغيرة فى الكهف رقم (٤) بقمران مكتوبة بالعبرية تحتوى على جزء من سفر الخروج ، وجدت أنها تتفق مع القراءة السامرية فى بعض الأجزاء التى تختلف فيها عن النص العبرى .

وهذا يدل على أن الأسفار السامرية ترجع إلى نص قديم كان موجودا منـذ نشأة هذه الجماعة فـى القـرن الخامس قبل الميـلاد ، لم يحدث به تغيير .

وهكذا فنحن نجد بين الكتابات التى عثر عليها فى كهوف قمران من العهد القديم ، ما يتفق منها مع النص العبرى المازورى وما يتفق مع النص اليونانى السبعينى وما يتفق مع النص السامرى ، إلى جانب كتابات أخرى تحتوى على مزيج من هذه النصوص . كل هذا يدل على أنه كان هناك ـ على الأقل ـ أربع كتابات مختلفة لذات الأسفار التى تدخل ضمن مجموعة العهد القديم ، مما دفع بعدد كبير من الباحثين المسيحيين للمطالبة بعدم الاقتصار على النص المازورى فقط عند القيام بترجمات جديدة ، وإنما باختيار الأصلح والأقرب إلى الصحة من بين النصوص الموجودة .

كتاب التلاميد ومخطوطة دمشق

إلى جانب المخطوطات التى تتضمن الكتابات الدينية ، تم العثور فى كهوف قمران على بعض النصوص التى تشرح طريقة نظام جماعة العيسويين ، منها « كتاب التلاميذ » والكتاب الذى عرف باسم « مخطوطة دمشق » . والمرجح أن هذه التسمية ترجع إلى ماورد فى بعض كتب الأنبياء بخصوص عقاب الرب للعصاة من بنى إسرائيل عن طريق إبعادهم عن فلسطين . فقد ورد فى الإصحاح التاسع من سفر زكريا : « وحى كلمة الرب فى أرض حدراخ ودمشق محله » . كما ورد بالإصحاح الخامس من سفر عاموس على لسان الرب : « هل قدمتم لى نبائح ... أربعين سنة يا بيت إسرائيل . بل حملتم خيمة ملوككم وتمثال أصنامكم نجم إلهكم الذى صنعتم لنفوسكم فأسبيكم إلى ماوراء دمشق » . يبدو أن اسم « دمشق » كان يمثل كناية رمزية لجماعة قمران ، فبينما يتكلم الأنبياء على نفى بنى إسرائيل شمالا إلى ماوراء دمشق ، عقابا لهم على عبادة الأصنام فإن مخطوطة دمشق تعيد صياغة هذا النص لتجعله يمثل الوعد للطائفة التى حافظت على إيمانها وسط إسرائيل بأن تهرب من المجتمع اليهودى لتقوم بحماية الرسالة الصحيحة : « سوف أنفى خيمة ملككم وقواعد تماثيلكم من خيمتى إلى دمشق » .

وبحسب التفسير الرمزى الذى تتبعه جماعة قمران ، فإن « خيمة الملك » تعنى « كتب الرب » ، « قواعد التماثيل » تعنى « كتب الأنبياء » ، وعلى هذا فإن تفسير الجماعة للنص يعنى « أن الرب سينقل مع الجماعة كتب التوراة وكتب الأنبياء ـ التى كان يهود القدس يكرهونها ـ بعيداً عن يهودا ، لحمايتها » .

« وهم حفروا البئر : البئر التى حفرها الأمراء ، التى حفرها شرفاء الشعب بالعصى » والبئر هو الشرع ، ومن حفروها كانوا هم الذين اهتدوا من بنى إسرائيل الذين خرجوا من أرض يهودا ليسكنوا أرض دمشق سماهم الرب الأمراء لجئوا إليه ، وسمعتهم لا ينازعها أحد . والعصى هى مفسر الشرع الذى قال عنه إشعيا « يخرج أداة لعمله ، وشرفاء الناس هم أولئك الذين يأتون لحفر البئر بالعصى .. حتى يسيروا فى كل عصر الشر ، إلى أن يأتى من سوف يعلم الصدق فى نهاية الأيام.. منذ اليوم الذى يأتى فيه المعلم الأوحد وحتى فناء كل رجال الحرب الذين يعودون مع رجل الكذب ، سيكون حوالى أربعين عاما ، وفى هذه الفترة سيشتعل غضب الرب ضد بنى إسرائيل ، كما قال : لأن بنى إسرائيل سيقعدون أياما كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا قاضٍ . »

أما الاسم الذى أطلقه أهل الجماعة على أنفسهم فهو « بريث

حاداشة » أى « العهد الجديد » ، وكانوا ـ وإن اختلفوا عن كهنةمعبد القدس وتباعدوا عنهم ـ يعتبرون أنفسهم جماعة من النساك ، وكان كاهنهم هو أعلى مرتبة فى الجماعة فلا يجوز لهم الاجتماع ـ إذا بلغ عددهم عشرة أو زيادة ـ دون أن يكون بينهم كاهن ، ومع هذا فإن تسيير أمور الجماعة كان يتم عن طريق الشورى ، حيث كانت الأمور تعرض للمناقشة ويحق لكل عضو الاشتراك برأيه ، ثم التصويت فى النهاية ، إلا أن أى قرار يتخذه مجلس كهنة الجماعة يعتبر قرارا مقدسا لا يمكن الخروج عنه ، كان يرأس الجماعة كاهنان لكل منهما اختصاصاته ، يسمى أحدهما « باقد » أى « المراقب » ، وهو يشرف على المسائل الدينية ويختبر الأعضاء الراغبين فى الانضمام إلى الجماعة ، والثانى « مبقر » بمعنى « ناظر » وهو الذى يتولى الأمور الإدارة والمالية .

وسبق أن تم العثور فى عام ١٨٩٦ على نسختين من « مخطوطة دمشق » فى غرفة كانت مغلقة بالمعبد اليهودى بمصر العتيقة بالقاهرة . كان هذا المعبد من قبل كنيسة القديس ميكائيل القبطية ، إلا أن اليهود فى مصر قاموا بشرائها عام ٨٢٢ .

وكان قصر الشمعة ـ اسم الكنيسة ـ يمثل بقايا القلعة الرومانية القديمة التى بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط بجوارها ، كان بها ست كنائس للأقباط ، هى الكنيسة المعلقة وكنيسة أبو سيرج ومار جرجس

ومريم العذراء والقديسة باربارا والقديس ميكائيل . حول اليهود كنيسة ميكائيل إلى معبد عزرا ، الذى كانت به غرفة خلفية للمخزن تسمى كنيزة - وهى غرفة ليس بها نوافذ ولا أبواب - ولم يكن يمكن الدخول إليها إلا عن طريق فتحة فى أحد جدرانها وتبين أنها تحتوى على العديد من بقايا المخطوطات القديمة التى لم يستطع اليهود التخلص منها لوجود اسم الرب مدونا بها .

تتكون مخطوطة دمشق من جزئين ، يتضمن الجزء الأول بعض النصائح للأعضاء ، ويحتوى الجزء الثانى على بعض الشرائع التى تحضهم على الحفاظ على إيمانهم . إلا أن هذا الكتاب يقوم بتفسير نصوص العهد القديم بطريقة غريبة تختلف مع ما يقول به كهنة المعبد ، ومن أمثلة هذه الاختلافات ما يتعلق بقانون الزواج ، فبينما قال كهنة المعبد وأحبار التلمود بجواز الزواج من ابنة الأخ أو الأخت - لعدم ورود نص صريح فى التوراة يحرمه - فإن جماعة قمران تحرّم هذا الزواج قياسا على تحريم زواج العمات والخالات .

ويتنازل العضو الجديد فى جماعة قمران عن ممتلكاته لتكون ملكية مشتركة فى الجماعة وكانوا يتناولون طعامهم سويا ويقومون بالتسابيح جماعة . وكانت جماعة قمران تتبع نظاما صارما فى حياتها ، وتقوم على

أساس من الطبقات والدرجات . فعند الاجتماع كان كل منهم يجلس بحسب درجته ، ولا يتكلم إلا عندما ينتهى من هو أعلى منه درجة من الكلام ، وكذلك الحال فى جميع الشئون الأخرى . وعندما تجتمع الجماعة فى المناسبات الخاصة :

« يكون كل أفراد الجماعة كل على حسب درجته ، ويجب أن يتم سؤالهم عن المسائل المتعلقة بشئون المجلس بهذا الترتيب ، وعلى كل رجل أن يقص ما يعرفه على مجلس الجماعة . لا تجعل أحدا يقاطع زميله أثناء كلامه أو يسبق دوره فى الكلام وإنما يتكلم الرجل عندما يطلب منه ذلك عند مجئ دوره ، وفى جلسة الجماعة لا يتكلم أحد بما يغضب الغالبية أو بخلاف توجيه الناظر وإذا كان أى رجل يرغب فى الحديث إلى الجماعة ، فعليه أن يقف على قدميه ويقول « لدى شئ أقوله للجماعة » ، فإذا دعوه تكلم » .

كما تم العثور على مخطوط يحتوى على نظام الجماعة فى الكهف رقم (١) ، الذى يسمى كتاب التلاميذ ، يحتوى على القواعد التى على أساسها تتم معرفة الحقيقة والبهتان ، ويحدد الخطوات التى يمر بها العضو الجديد حتى يتم قبوله فى الجماعة، وكيفية تنظيم التلاميذ ، وكذلك نظام توقيع العقوبات على المخالفين لقواعد الجماعة ، ويحدد القواعد الأساسية لواجبات سيد الجماعة والأعضاء ويبين الأعياد المقدسة التى

تحتفل بها الجماعة : وتنقسم محتويات هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء :

١- شروط الانضمام إلى جماعة العهد الجديد .

٢- نظام عمل مجلس الجماعة.

٣- تعليمات يلتزم سيد الجماعة باتباعها .

١- « على السيد أن يعلِّم التلاميذ أن يعيشوا تبعا لنظام الجماعة ، وأن يسعوا إلى الرب بكل قلوبهم وأرواحهم ، وأن يعملوا ما هو صالح ومستقيم أمامه ، كما أمر على يد موسى وكل عبيده من الأنبياء ، وأن يحبوا كل ما اختار ويكرهوا كل ما نبذ ، وأن يبتعدوا عن الشر ويلتصقوا بكل الأعمال الطيبة .. ولسوف يقبل (سيد الجماعة) فى جماعة عهد الحب الراسخ ، كل من وهب نفسه بحرية لمراعاة فرائض الله ، حتى ينضموا إلى جماعة الله ويعيشوا فى كمال أمامه .. علمهم فى حقيقة كمال الله وأن يسخروا قوتهم على حسب طريقته للتكامل ويسخروا كل أموالهم حسب مشورته الصادقة .. وعلى كل من يعتنق نظام الجماعة أن يدخلوا العهد (الجديد) أمام الله لطاعة كل وصاياه حتى لا يتركوه خلال فترة سيطرة الشيطان ، خوفا أو رعبا أو حزنا ، وعندما يدخلوا العهد يقوم الكهنة واللاويون بتسبيح إله الخلاص وكل إيمانه ، ويقول بعدهم كل الداخلين إلى العهد ، آمين ، آمين .. كل أبناء الصلاح يحكمهم أمير النور

وهم يمشون فى طريق النور ، ولكن أبناء النفاق يحكمهم ملاك الظلام وهم يمشون فى طريق الظلام ويقوم ملاك الظلام بتضليل كل أبناء الصلاح ، وحتى نهايته فإن كل خطاياهم وآثامهم وشرورهم وأعمالهم غير المشروعة تكون بسبب سيطرته » .

وكما أن العالم الخارجى يحكمه الصراع الدائم بين قوى الخير والقوى الشريرة ، فإن النفس الإنسانية تحتوى هى الأخرى على عناصر هذا الصراع في داخلها ، فبحسب ما جاء بهذا الكتاب فإن كل إنسان له روحان يعيش بهما طوال حياته ، وهما روح الحق وروح الخطأ ، وبينما يأتى الحق من مراكز النور فإن الخطأ مصدره الظلام وتتصارع الروحان داخل كل إنسان فإن تغلبت روح الحق جاء سلوك الإنسان خيرا أما إذا تغلبت روح الخطأ فتكون تصرفات الإنسان غير سليمة ، وفى الواقع فإن هـذه الأفكار عن وجود صراع أبدى بين الخير والشر ، وأن الشيطان - الذى هو ملاك الظلام - يقوم بغواية البشر ، وإن كانت معروفة لدينا الآن من التعاليم الإسلامية والمسيحية ، إلا أن يهودية الكهنة لم تكن تعرف هذه الأفكار أو تؤمن بها .

وتضمن الكتاب الأفعال المحرم على الأعضاء القيام بها والعقوبة التى توقع على فاعلها ، من بينها :

« إذا كذب واحد منهم عمدا فى مسألة من مسائل الملكية ، فسوف يستبعد من وجبة الجماعة الطاهرة لمدة عام وسوف يقدم ربعا من طعامه كفارة للتوبة . كل من يجاوب زميله فى عناد أو يخاطبه بضجر ، إلى حد أنه لا يراعى كرامة زميله بعصيان الأمر الصادر من زميل يعلو عليه مرتبة ، يكون قد خرج على قانون الجماعة ولهذا يكون عليه الاستغفار لمدة عام ، (يكون فيه مستبعدا من الجماعة) .

إذا نطق أحد بالاسم الكريم ، حتى ولو كان عن طريق الاستهتار أو نتيجة صدمة أو لأى سبب آخر مهما كان ـ بينما هو يقرأ كتاب الصلاة ـ فلسوف يطرد ولا يعود أبدا إلى مجلس الجماعة .

إذا تحدث العضو بغضب ضد الكهنة المذكورين فى الكتاب ، فسوف يكفر عن فعله لمدة عام ويحرم من وجبة الجماعة الطاهرة ، لأجل روحه أما إذا كان قد تحدث سهوا فيكفر ستة أشهر .

كل من يكذب عمدا يكون عليه التكفير لمدة ستة أشهر .

كل من يهين زميله عمدا ـ بدون وجه حق ـ يقوم بالتكفير لمدة عام يستبعد خلاله .

كل من يخدع زميله عامدا بالكلام أو بالفعل ، يقوم بالتكفير لمدة ستة أشهر ..

كل من يتذمر ضد سلطة الجماعة يطرد ولا يعود ، ولكن إذا تذمر ضد زميل له يقوم بالتكفير لمدة ستة أشهر .. في مجلس الجماعة يكون اثنا عشر رجلا وثلاثة من الكهنة ، خبيرين فى كل ما أوحى به من الشرع ، ويكون عملهم قائم على الحق والاستقامة والعدل ، يحبون الشفقة والتواضع ولسوف يحافظون على الإيمان فى الأرض بحزم وتواضع ، ويكفرون عن الخطيئة بممارسة العدل وتحمل سهام المحنة ولسوف يسيرون مع كل الرجال على أساس من الحق وحكم العصر .

يجب ألا يخفى المفسر عنهم (الأعضاء) - خوفا من روح الردة - أى من الأشياء الخافية عن بنى إسرائيل . والتى اكتشفها هو .. وعليهم أن ينفصلوا عن مسكن غير الورعين من الرجال ، وسوف يرحلون إلى البرية لإعداد الطريق له ، فكما هو مكتو ب (فى سفر إشعيا) : فى البرية أعدوا طريق الرب قوموا فى القفر سبيلا لإلهنا . وهذا الطريق هو دراسة الشرع الذى أوصاه على يد موسى ، وأن يعملا بحسب كل ما أوحى به من عصر إلى عصر ، وكما بين الأنبياء عن طريق روحه القدس » .

من هو المعلم الصديق لجماعة قمران

ومن هو الكاهن الشرير

يقول إنجيل متى بشأن ميلاد المسيح إنه « لما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودو س الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود ؟.. فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له ، فلما سمع هيرودوس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح ؟ فقالوا له فى بيت لحم اليهودية .حينئذ دعا هيرودوس المجوس سرا ، تحقق منهم زمان النجم الذى ظهر ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبى ومتى وجدتموه فأخبرونى ... فلما سمعوا من الملك ذهبوا ، وإذا النجم الذى رأوه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبى .. فخروا وسجدوا له ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبا ولبانا ومرا .

ثم أوحى إليهم فى حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودوس .. وبعد ما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم قائلا : قم خذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودوس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه ... (و) لما رأى هيرودوس أن المجوس سخروا به

غضب جدا فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذى تحققه المجوس .. فلما مات هيرودوس ، إذا بملاك الرب قد ظهر فى حلم ليوسف فى مصر قائلا : قم وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين يطلبون نفس الصبى .»

ولما كان الملك هيرودوس قد مات فى العام الرابع قبل الميلاد ، فإن ميلاد المسيح وقتل الأطفال ـ بحسب هذه الرواية ـ لابد وأن يكون قد تم قبل هذا التاريخ ، كما وأن أناجيل العهد الجديد تحدد وقت موت المسيح فى خلال فترة الحاكم الرومانى « بونتياس بيلاطس » ، الذى حكم فلسطين فى ما بين ٢٦ و ٣٦ للميلاد . وبما أن جماعة قمران كانت قائمة منذ القرن الثانى السابق للميلاد وحتى منتصف القرن الميلادى الأول ـ الذى تتضمن وقت ميلاد ووفاة السيد المسيح ـ فقد توقع الكثيرون العثور على ذكر أو تعليق على هذه الأحداث ، يؤكد أو ينفى التفسيرات القائمة .

إلا أن الكتابات التى تم ترجمتها ونشرها لا تحتوى على أية معلومات فى هذا الخصوص ، فلا ذكر لمقتل الأطفال أيام هيرودوس ولا لصلب المسيح أيام بونتياس بيلاطس . وبدلا من هذا فإن جماعة قمران تتحدث عن شخص آخر ـ لا تذكر اسمه أو الزمن الذى عاش فيه ـ كان هو معلمها

الذى مات فى تاريخ سابق ، وهم فى انتظار عودته .

وتبين من الكتابات الخاصة بجماعة قمران أن العيسويين كانوا يعتقدون بأنهم يمثلون طائفة العهد الجديد ، مقابل العهد القديم الذى يقول به اليهود ، وجوهر العهد القديم عند اليهود كان يقوم على أساس من التزامهم بختان الأولاد إلى ما جاء بسفر التكوين عندما خاطب الرب إبراهيم الخليل قائلا : « أقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك .. هذا هو عهدى بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك ، يختن منكم كل ذكر فتختتون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم .. فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديا ، وأما الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها إنه قد نكث عهدى » .

إلا أنه لما جاءت الدعوة المسيحية ، قال الحواريون ـ وبعدهم بولس الرسول ـ بانتهاء خاصة العهد القديم القائم على الانتماء السلالى ، وببدء عصر العهد الجديد لكل من يؤمن بقيامة المسيح من أبناء الأمم ، ولهذا فإن الدعوة المسيحية قد رفضت فكرة الشعب المختار منذ البداية ، ولهذا أيضا فإن نبى الإسلام قد وصف بأنه « النبى الأمى » ، أى الذى جاء من الأمة العربية من غير بنى إسرائيل .

إلا أن جماعة قمران العيسوية - والتي يرجع أصلها إلى زمن يسبق العصر المسيحي بعشرات السنين - كانت هي الأخرى تعتقد بأنها تمثل العهد الجديد وإن كانت هذه الجماعة قد ظلت جزءا من الكيان السياسي لليهود ، ولم تخرج بدعوتها إلى الأمم . وجوهر فكرة العهد الجديد تقوم على أساس أن من يؤمن بقيامة المسيح - أي من يؤمن بالحياة الأخرى - لا يمكن له أن يموت ، إذ لا يموت إلا الكيان الجسدي أما الأرواح فلها الخلود . ولما كانت يهودية الكهنة لا تعتقد بوجود الروح ولا بالحياة بعد الموت ، فقد أصبح الاعتقاد بخلود الروح هو جوهر المسيحية ، فقد جاء بإنجيل يوحنا على لسان السيد المسيح : « أنا هو القيامة والحياة ، من آمن بي ولو مات فسيحيا ، وكل من حيا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد » .

وتبين من كتابات جماعة قمران أنه كان لهم معلم يلقبونه باسم « المعلم الصديق » ، كانت نهايته دموية في زمن غير محدد من الماضي ، أي قبل القرن الثاني السابق للميلاد ، وأن الذي تسبب في موته كان هو « الكاهن الشرير » . وبحسب ما جاء في المخطوطة التي تحتوي على تفسير سفر «حبقوق » وكذلك في مخطوطة « حرب أبناء النور مع أبناء الظلام » ، فإن «الرب قد كشف له كل أسرار كلمات عبيده من الأنبياء » . وهناك تشابه كبير بين « المعلم الصديق » الذي ورد ذكره في كتابات جماعة قمران ، وعيسى المسيح الذي نعرفه من كتابات العهد الجديد ومن القرآن . وقد

قام الباحث الفرنسى « أندريه دوبونت سومر » بعمل مقارنة بين الاثنين :
« كان تلاميذ (المعلم الصديق) يعتقدون أنه - مثل يسوع - هو المسيح مختار الله ومخلص العالم. وكلا منهما كان يعارض الكهنة ، وكلاهما حكم عليه بالموت ، وكلاهما أعلن حكم الإدانة على القدس ، وكلاهما كون جماعة ينتظر أعضاؤها عودته (فى نهاية الأيام) للحكم على العالم » .

إلا أن الباحثين انقسموا فى تفسيرهم لأهمية مخطوطات قمران فى التعرف على أصل المسيحية إلى عدة مذاهب . وبينما حاول البعض منهم استبعاد وجود أية علاقة بين جماعة قمران والتاريخ المسيحى ، فقد قال البعض الآخر - مثل تايشر الذى كان أستاذا بجامعة كامبريدج - بأن المعلم الصديق ما هو إلا عيسى المسيح نفسه ، وبأن هؤلاء العيسويين ماهم إلا الجماعة المسيحية الأولى .

بل إن واحداً من الباحثين الثمانية الذين اختارتهم السلطات الأردنية لدراسة المخطوطات ، وهو البريطانى « جون اليجرو » من جامعة مانشستر ، قد ذهب إلى أن المسيح لم يكن شخصا تاريخيا على الإطلاق ، وإنما شخصية أسطورية كما كتب الأمريكى « ادموند ويلسون » عدة كتب يقول فيها إن مولد المسيحية لم يكن فى بيت لحم وإنما فى قمران . إلا أن الغالبية العظمى من الباحثين لم تتخذ هذه المواقف المتطرفة ، وإن اعترفت بأن مخطوطات قمران لابد وأن تؤدى إلى تغير كبير فى تفسير

المرحلة الأولى الغامضة من تاريخ المسيحية ، ويقول الأمريكى وليام أولبرايت - الذى له دراسات عديدة فى آثار منطقة فلسطين وتاريخ الكتابات القديمة - بأن هذه « الأدلة الجديدة ... ستؤدى إلى تطور ثورى فى نظرتنا إلى بداية المسيحية » إلا أن هناك طائفة تتكون معظمها من أساتذة دراسات العهد القديم ، تقول بأن يسوع كان تلميذا فى جماعة قمران ، وبالتالى فإن تعاليمه كانت مأخوذة عنها.

وحاول الباحثون عبثا تحديد شخصية المعلم الصديق والتعرف على اسم الكاهن الشرير ، واقترحوا لهذا عدة اسماء فى تاريخ حكام يهودا الهاسمونيين خلال القرن الثانى قبل الميلاد ، ولكن ليس هناك أى دليل يؤكد صحة هذه التخمينات ، كما أن يوسيفوس - المؤرخ اليهودى المعروف - لم يذكر أى شئ من هذا القبيل ، والأرجح أن المعلم عاش ومات فى عصر سابق ، وإن كانت الجماعة تعتقد أن كهنة معبد القدس هم خلفاء الكاهن الشرير وممثلو الشيطان على الأرض .

وكل ما نعرفه من كتابات جماعة قمران أن المعلم الصديق كان يعرف التفسير الصحيح لما جاء بتعاليم الأنبياء ، وقواعد الاحتفال بالأعياد ، وأن الكاهن الشرير - والذى يسمى أحيانا بالكذاب - اختلف معه ، وهاجمه فى المكان الذى كان يهرب فيه ، فهرب مع بعض تلاميذه إلى ما يسمى بأرض دمشق ، وإن كان أحد لا يعرف بالتحديد ماذا تعنى هذه

الكناية ، فليس المقصود هنا « دمشق » العاصمة السورية ، وإنما استخدمت هذه الكلمة كرمز لمكان آخر لا يعرفه إلا التلاميذ . فقد كانت جماعة قمران تفسر كتاباتها على أنها رموز ، ويحلف الأعضاء اليمين عند قبولهم بعدم الافصاح عن المعانى الخاصة التى يفسرون بها هذه الكلمات ، إلا أن الكاهن الشرير عاد وهاجم المعلم الصديق فى مكان عزلته ، وكان هجومه عليه فى اليوم الذى أصبح يعرف باسم « يوم كيپور » أو يوم الغفران ، و« أمسك به (بالمعلم) حتى يبتلعه » ، ثم تذكر رواية أخرى كيف أن « الرب يخلصه من أيديهم » .

ومنذ أن أصبحت مكتبة قمران بكاملها تحت سيطرة السلطات الإسرائيلية ، على أثر احتلالها للقدس الشرقية ومنطقة قمران بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، لم تقم لجنة المخطوطات بنشر أية ترجمات أخرى ، إلا أن « هرشيل شانكس » - رئيس تحرير مجلة بيبليكال أركيولوچيكال چورنال وبيبليكال ريڤيو الأمريكية - قد نشر عام ١٩٩٠ نصا صغيرا من مخطوطة دمشق قال إنه حصل عليه عن طريق بعض الأصدقاء ، وأثار هذا النص اهتماما كبيرا ، والسبب الذى جعل هذا النص - رغم صغر حجمه - يثير العديد من التساؤلات ، هو أنه يشبه ماورد فى الإصحاح الأول من إنجيل لوقا عن ميلاد عيسى المسيح ، والذى يتعلق بالبشارة التى حملها جبريل إلى مريم : « سيكون عظيما فى الأرض وابن العلى يدعى » .

والجدير بالذكر أن آباء الكنيسة حتى القرن الرابع للميلاد كانوا يقولون بأن المسيح كان له وجود سابق على ظهوره للحواريين فى فلسطين . فقد كتب « يوسيبيوس » أول مؤرخ للكنيسة يقول إن : « طبيعة المسيح مزدوجة .. فكلا من يسوع والمسيح كان اسما ممجدا حتى من أنبياء الله المحبوبين منذ القدم ، كما يجب على الآن أن أوضح ، فلقداسة وعظمة هذا الاسم البالغة قام موسى نفسه بإعلانه أولا .. فهو عندما وصف الكاهن الأكبر للرب - وهو أقوى الرجال - قد دعاه المسيح .. كما أن موسى تمكن بالروح القدس أن يتنبأ بوضوح عن لقب يسوع ، فهو شعر أن هذا أيضا يستحق امتيازاً خاصا ولم يكن بعد قد سمعته آذان البشر ، تبين لموسى لقب يسوع الذى أعطاه للمرة الأولى والوحيدة للرجل الذى - على سبيل الرمز - عرف أنه سيخلفه بعد موته فى سلطته العالية .

ولم يكن خليفته حتى ذلك الوقت قد استخدم التسمية « يسوع » ، وإنما كان معروفا باسم آخر « هوشيا » الذى أعطاه له أبواه ، لكن موسى دعا يسوع مضيفا عليه الاسم كشرف لا يضاهيه ثمن ، أعظم بكثير من أى تاج ملكى ، ذلك أن يشوع بن نون حمل بنفسه شكل مخلصنا ، الذى هو وحده - من بعد موسى واستكمال التكريم الرمزى الذى أعطاه للرجال - قد خلف السلطة على الدين الصحيح الخالص » .

ونحن نرى أن يوسيبيوس هنا يكاد يقول بأن يشوع بن نون خليفة

موسى هو نفسه يسوع المسيح ، فهو ليس فقط يحمل نفس الاسم ولكن الشبه كذلك ، كما وأنه - مثله - خليفة موسى . والمشكلة هنا أن المفروض أن يشوع قد عاش فى نفس زمن موسى خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، بينما عاش يسوع فى بداية القرن الميلادى الأول . كل هذا الكلام يحمل رموزا كان يعرفها الأوائل من رجال الكنيسة كما كان رجال قمران يعرفون الرموز كذلك .

وكما نرى فإن مخطوطات قمران بدلا من أن تؤكد ما كان معروفا من قبل فهى قد فتحت الموضوع للبحث من جديد ، ولا شك أنه بصرف النظر عن نشر ما تبقى من المخطوطات من عدمه ، فما قد نشر حتى الآن يكفى لإثارة العديد من الأسئلة التى تحتاج الإجابة عليها .

معركة أبناء النور مع أبناء الظلام فى آخر الأيام

لاشك أن الموضوع الجوهرى الذى شغل بال الإنسان منذ وعى وجوده فى هذه الدنيا كان هو مسألة الموت ، عندما يتوقف الجسد عن الحركة ثم يبدأ فى الذوبان والتحلل. هل الموت هو نهاية الوجود الإنسانى ؟ هذا هو السؤال الذى حاول الفكر البشرى الوصول إلى إجابة له منذ القدم ، ولاحظ الإنسان أن هناك من أنواع الموجودات الحيوانية ما لا يطول عمره إلا بضع سنين ، وأن من العناصر الطبيعية - مثل الجبال والكواكب - ما يظل قائما مستمرا فى وجوده وفى حركته . كما وأنه لاحظ فى عالم النباتات أن تغير الفصول يؤدى إلى موت فى الخريف والشتاء تعقبه عودة الحياة فى الربيع والصيف ، فهل من عودة لحياة الإنسان بعد الوفاة ؟

كان المصريون القدماء هم أول الشعوب التى قالت بانقسام الوجود الإنسانى إلى جسد مادى وكيان روحى ، كما أنهم قالوا بازدواج هذا الكيان الروحى الذى عبروا عنه باسم « با » و « كا » وآمن المصريون بخلود البعد الروحى للإنسان حتى بعد فناء الجسد المادى ، ولذلك فهم قد عملوا على حفظ الجسد حتى لا يتحلل أو يضيع ، فقاموا باستخدام مواد كيميائية لتحنيط الجسد بعدالموت حتى يظل على صورته الأصلية .

كما وأنهم اهتموا ببناء المقابر المحصنة فى الصخور ، ووضعوا

بداخلها من التعويذات والكتابات ما كانوا يعتقدون بقدرته على حماية الإنسان فى رحلته فى العالم الآخر ، إذ كانوا يعتقدون بأن الأرواح ستعود إلى جسدها بعد ذلك ويعود الإنسان إلى الحياة ، ولأن المصريين القدماء قد آمنوا بوجود قوى إلهية خفية تتحكم فى عالم الإنسان ، فهم قد اعتقدوا بضرورة محاولة إرضاء هذه القوى - ليس فقط عن طريق تقديم الذبائح والقرابين - وإنما كذلك عن طريق الالتزام باتباع سلوك أخلاقى معين ، حتى يرضى عنهم عالم الآلهة ولا يقف عقبة فى طريق عودتهم إلى الحياة مرة ثانية .

ولهذا فإن عودة الروح أو عودة الحياة بعدالموت أصبحت تمثل فكرة الخلاص النهائى للإنسان ، وكان الاعتقاد المصرى القديم - كما يتبين من برديات كتاب الموتى التى كانوا يضعونها معهم فى المقابر - أن كل إنسان سيمر بمحاكمة بعد موته ، حيث يتم وزن مجمل أفعاله مقابل « معات » (رمز الصدق) ، ولن يسمح إلا للإنسان الصالح الذى لم يضر بالآخرين ، بالعودة إلى الحياة الأخرى . ولما كانت إجراءات التحنيط - التى تستغرق سبعين يوما - والدفن ، تتطلب تكاليفا باهظة لا يقدر عليها عامة الناس ، فقط كان الملوك والنبلاء هم الوحيدين القادرين على التطلع إلى الخلاص عن طريق الحياة الأخرى ، ولهذا قدس المصريون حكامهم ونبلاءهم ، الذين تصوروهم نوعاً آخر من المخلوقات حيث أن حياة

الإنسان العادى لن يكتب لها الخلود إلا عن طريق هؤلاء .

ومع أن الديانة اليهودية قد نادت بإله واحد ليس له صورة أو تمثال ، إلا أن يهودية الكهنة التى خرجت من بابل لم تعتقد بخلود الروح ، ولا بالحياة بعد الموت أو بالحساب . وكانت فكرة الخلاص اليهودية تقوم على أساس أن شعب إسرائيل هو الشعب الذى اختاره الرب ، وأن نهاية العالم سوف تشهد مجئ المسيح - ملك إسرائيل الذى يأتى من سلالة داود - لينصر شعبه ، ويحقق له السيادة على باقي الأمم . ومع هذا فقد نادى عدد كبير من أنبياء بنى إسرائيل بخلود الروح وانتظار الخلاص النهائى للبشر ، وقال هؤلاء بأن المسيح المنتظر هو الذى يأتى بالخلاص ، وبأنه سيكون منهم ، حيث كانوا يعتبرون أنفسهم « إسرائيل الحقة » ، وأنه سيعاقب حكام يهودا من بين أعداء الرب . وكان مصير غالبية أنبياء بنى إسرائيل القتل من بنى إسرائيل . ولهذا فإن دعوة الخلاص أصبحت تمثل صراعا يقوم بين المسيح المخلص ورؤساء الشعب الذين يحكمونه ويضطهدونه ، ولهذا أيضا فإن جماعة قمران - والتى كانت تتبع وصايا الأنبياء - كانت تضطر إلى ممارسة شعائرها سرا وعدم البوح بأسرارها حتى لا تتعرض للعقاب .

وليس غريبا فى هذه الظروف أن نجد بين مخطوطات قمران ما يخبرنا عن انتظار العيسويين ليوم الخلاص الذى فيه تندحر قوى

الشيطان - التى تتمثل فى كهنة معبد القدس - وتنتصر الجماعة عند عودة معلمها وهذا الانتصار ليس فقط ضد الشيطان ولكنه أيضا ضد الموت ، ويكون هذا النصر علامة على بداية الحياة الأبدية وخلاص الإنسان إلى الأبد .

كانت جماعة قمران تنتظر عودة المعلم الصديق إلى الحياة ، ويكون مجيئه إشارة على حلول نهاية الأيام - يوم القيامة - وبدء الحساب ، وهو الذى يقود معركة حرب الخلاص النهائى للقضاء على الشر والظلام وإحلال عصر النور الأبدى . كما أن الكاهن الشرير - رجل الكذب والنفاق - الذى « عندما حكم إسرائيل .. ترك الرب وأصبح خائنا للشريعة من أجل الثروة ، وسرق وجمع ثروة الرجال النين لا يرحمون الذين تمردوا ضد الإله ، فأخذ ثروة الناس فزاد إلى صفاته الإثم والظلم . » إلا أن المخطوطة التى تتضمن التعليق على « سفر حبقوق » تقول إن الكاهن الشرير قد لقى نهايته على يد أعدائه لأنه أخطأ فى حق الرب .

وكان بين المخطوطات التى تم العثور عليها فى كهف قمران رقم (١) واحدة أصبحت تعرف باسم « مخطوطة الحرب » ، وتعطى تفاصيل صراع روحى يتم بين جماعة تسمى « أبناء النور » وجماعة أخرى تسمى « أبناء الظلام » التى تسميهم أحيانا « كيتيم » . وتستخدم هذه المخطوطة أسماء الأمم والقبائل القديمة ، استخداما رمزيا للدلالة على العناصر

المختلفة التى سوف تشترك فى هذه الحرب ، فهى تستخدم أسماء مثل « لاوى » و« يهودا » و« بنيامين » إلى جانب « أدوم » و« مؤاب » و« أبناء عمون » و « شعب فلستيا » ، وكلها أقوام سكنت أرض فلسطين والأردن عند القرن الثانى عشر السابق للميلاد ، كما ورد كذلك اسم « كيتيم أشور » . وبحسب ما جاء فى مخطوطة الحرب فإن المعركة الفاصلة التى يشنها أبناء النور على جيش « بليعال » - أى الشيطان - من أبناء الظلام ، سوف تبدأ عندما يعود المنفيون من أبناء النور من منفاهم فى الصحراء ويعسكرون فى صحراء أورشليم . وبعد انتهاء المعركة يصعدون من هناك ليحاربوا ملك الكيتيم فى مصر ، الذى سيذهب ليحارب ملوك الشمال ويقضى بغضبه على نفير قوتهم .

وتبدأ مرحلة من سيادة الأقوام التابعين له ، ويكون القضاء الأبدى لكل أقوام بليعال وسينتهى سلطان الكيتيم ، حتى يدفن كل الشر فلا يبقى منه شئ ولكن يكون هناك بقاء لأبناء الظلام .

وهو كتاب يمثل تفسير رمزى غير واقعى للصراع النهائى بين أبناء النور وأبناء الظلام - ساد الاعتقاد بأنه سيدوم أربعين عاما - وتم تحديد مراحله مسبقا . ونحن نرى كيف أن القوتين المتصارعتين تكاد تكون متساوية فى قوتهما ، إلا أن « يد الله القوية » هى التى تتدخل وتوجه « ضربة أبدية .. للشيطان وكل جماعته ومملكته » .

وتتضمن المخطوطة :

- إعلان الحرب على الكيتيم .

- إعادة تنظيم العبادة بمعبد القدس .

- تنظيم برنامج الحرب التى تستمر لمدة أربعين عاما .

- الأبواق ، التى يبلغ عددها ثلاثة عشر بوقا ، لكل منها دلالة خاصة ، حيث يدل أحدها على إعلان الهجوم وآخر على التجمع أو الانسحاب ، وهكذا .

- تحديد الأعلام التى ستسير الجيوش تحتها ، والتى تحملها الوحدات المختلفة .

- تنسيق القوات والأسلحة التى ستشترك فى التشكيلات الأمامية.

- خط سير فرقة المشاة المهاجمة .

- تنسيق وتحركات وحدة الفرسان .

- أعمار الجنود الذين سيشتركون فى القتال ، إذ إن كل فرقة تتكون من مقاتلين لهم أعمار محددة .

- تنظيم المعسكر الذى تتجمع فيه و حدات القتال .

- مهمة كهنة الجماعة فى أثناء دوران المعركة .

- الخطب التى سيتم إلقاؤها والصلوات التى يشترك فيها المقاتلون .

- الصلاة النهائية التى ستقام عندما يتم تحقيق النصر ، وكذلك كيفية تنظيم احتفال الشكر .

ويتكون جيش أبناء النور من فرقة المشاة من الشباب مابين الخامسة عشر إلى الثلاثين ، وفرقة من الفرسان لمن هم قد بلغوا الثلاثين إلى الخامسة والأربعين ، والضباط الذين تتراوح أعمارهم ما بين الأربعين والستين ، ثم القادة الذين هم مابين الخمسين والستين . ويقوم كهنة الجماعة بالنفخ فى أبواق الحرب ، معلنين بداية المعركة ومعطين إشارات الهجوم والتراجع . ويقوم جميع أفراد جيش أبناء النور قبل بدء القتال بالاشتراك فى صلاة جماعية ، ثم يصرخون عاليا « حتى يضرب الرعب قلب العدو » ، وهم يتقدمون تحت أعلام كتب عليها « شعب الرب » ، وعند ذلك - بحسب ما جاء فى مخطوطة الحرب - فإن « غضب الله سوف يشتعل ضد « بليعال » (الشيطان) وضد الجماعة التى معه حتى لا يبقى منهم أحد » .

وهناك تشابه كبير بين بعض أجزاء مخطوطة الحرب عند جماعة قمران وبين ما جاء بالإصحاح الحادى عشر من سفر النبى دانيال ، الذى يعود إلى ١٦٠ قبل الميلاد ، حيث جاء فيه :

« فى وقت النهاية يحاربه ملك الجنوب فيثور عليه ملك الشمال بمركبات وفرسان وبسفن كثيرة ويدخل الأراضى ويجرف ويطمو ويدخل إلى الأرض البهية فيعثر كثيرون وهؤلاء يفلتون من يده أدوم ومؤاب ورؤساء بنى عمون ، ويمد يده على الأراضى وأرض مصر لا تنجو ، ويتسلط على كنوز الذهب والفضة وعلى كل نفائس مصر . واللوبيون والكوشيون عند خطواته وتفزعه أخبار من الشرق ومن الشمال فيخرج بغضب عظيم ليخرب وليحرم كثيرين . وينصب فسطاطه بين البحور وجبل بهاء القدس ويبلغ نهايته ولا معين له . وفى ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبنى شعبك ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت وفى ذلك الوقت ينجى شعبك كل من يوجد مكتوبا فى السفر ، وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى ، والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهر » .

وهكذا فنحن نجد خلافا جوهريا بين معتقدات جماعة قمران

وبين تعاليم كهنة معبد القدس ، إلى درجة أن كهنة المعبد أصبحوا هم ممثلي بليعال : الشيطان .

إلا أننا فى ذات الوقت نجد خلافا أساسيا كذلك بين ماتنادى به جماعة قمران العيسوية وبين الاعتقادات المسيحية بعد ذلك . هذا وإن كان هناك بعض الشبه بين اعتقادات جماعة قمران وما كان يوحنا المعمدان ينادى به فى بداية العصر المسيحى ، فلقد ورد بالاصحاح الثالث من إنجيل متى أنه « فى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية قائلا توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات فإن هذا هو الذى قيل عنه بإشعيا النبى القائل صوت صارخ فى البرية أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة » .

حلم المدينة الفاضلة أو جنة نهاية الأيام

كان البحث عن المدينة الفاضلة - ولا يزال - هو حلم البشرية منذ وعت كيانها الاجتماعى ، سواء فى الاعتقاد الدينى أو فى الفكرالفلسفى والاجتماعى ، ذلك أن الإنسان يدرك بعقله ويشعر بوجدانه ضرورة وجود كيان اجتماعى آخر ، يخلو من المشاكل والنواقص التى تشوب المجتمع الذى يعيش به .

كانت جماعة قمران العيسوية تحلم بمدينة سمتها أورشليم الجديدة فقد تم العثور على قصاصات مكتوبة بالآرامية فى ستة من كهوف قمران ، تتضمن وصفا لما ستكون عليه « مدينة أورشليم » فى نهاية الأيام وجاءت الرواية على لسان شخص يتحدث عن رؤية رآها للمستقبل ، قام خلالها بزيارة « أورشليم الجديدة » : « قادنى إلى داخل المدينة ، وقاس أبعاد كل مجمع من البيوت طولها وعرضها .. ممر يحيط مجمع البيوت ، ودهليز الشارع .. والشارع الرئيسى الذى يمر فى وسط المدينة ، عرضه ثلاث عشرة قصبة .. وكل شوارع المدينة مرصوفة بالحجر الأبيض .. رخام ويشب ، ثم أرانى أبعاد الأبواب الجانبية الثمانين ، عرض الأبواب الجانبية قصبتان .. ولكل باب جناحان من الحجر .. وقادنى إلى مجمع البيوت وأرانى البيوت التى هناك » .

وهناك تشابه كبير بين هذه الرواية وما ورد فى سفر

حزقيال من كتب العهد القديم :

« وأتى بى إلى رواق البيت ، وقاس عضادة الرواق خمس أذرع من هنا وخمس أذرع من هناك وعرض الباب ثلاث أذرع من هنا وثلاث أذرع من هناك » . إلا أن الفكرة نفسها نجدها بوضوح أكثر فى الإصحاح الثالث من سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى من كتب العهد الجديد : « من يغلب فسأجعله عمودا فى هيكل إلهى ولا يعود يخرج إلى خارج وأكتب عليه اسم إلهى واسم مدينة إلهى أورشليم الجديدة النازلة من السماء من عند إلهى » .

ولم تكن أورشليم هى المدينة المقدسة فى زمن موسى الرسول ، ولم يرد ذكرها فى أى من كتب التوراة الخمسة ، وإنما كانت الأرض المقدسة عندئذ فى سيناء ، حيث جاء بالإصحاح الثالث من سفر الخروج أن موسى كان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان « فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب ، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة ، فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار ولم تكن تحترق ، فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم ، لماذا لاتحترق العليقة . فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه من وسط العليقة وقال موسى ، فقال هأنذا فقال لا تقترب إلى ههنا ، اخلع حذاءك من رجليك ، لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة » . وفى هذه الأرض فوق جبل سيناء - عند

منطقة دير سانت كاترين الحديثة - نزلت التوراة على موسى ، الذى ظل فوق الجبل أربعين يوما بصحبة خليفته يشوع . كما أنه - حتى بعد نهاية الفترة التى تقول الروايات اليهودية أن داوود وسليمان عاشا خلالها فى أورشليم - فنحن نجد قصة شخصية رمزية وردت فى الاصحاح ١٩ من سفر الملوك الأول ، لا تزال تجعل جبل سيناء هو المكان المقدس لسلالة إسرائيل . فقد سار إيليا الذى خجل من عبادة قومه للأصنام فى البرية مسيرة يوم « حتى أتى وجلس تحت رتمة وطلب الموت لنفسه وقال قد كفى الآن يارب خذ نفسى لأننى لست خيرا من آبائى ، واضطجع ونام تحت الرتمة وإذا بملاك قد مسه وقال قم وكل ، فتطلع وإذا كعكة رضف وكوز ماء عند رأسه فأكل وشرب ثم رجع فاضطجع .

ثم عاد ملاك الرب ثانية فمسه وقال قم وكل لأن المسافة كثيرة عليك فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب ، ودخل هناك المغارة وبات فيها ، وكان كلام الرب إليه يقول ما لك ههنا ياإيليا . فقال قد غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف ، فبقيت وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها . فقال اخرج وقفْ على الجبل أمام الرب ، وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب ، ولم يكن الرب فى الريح ، وبعد الريح زلزلة ، ولم يكن الرب فى

الزلزلة ، وبعد الزلزلة نار ، ولم يكن الرب فى النار ، وبعد النار صوت منخفض خفيف ، فلما سمع إيليا لف وجهه بردائه وخرج ووقف فى باب المغارة ، وإذا بصوت إليه يقول : مالك ههنا يا إيليا. فقال : غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف ، فبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها ، فقال الرب اذهب راجعا فى طريقك إلى برية دمشق » .

ولم تصبح مدينة أورشليم مقدسة عند اليهود إلا منذ أن أعادوا بناءها فى القرن الخامس السابق للميلاد ، بتصريح من الملك الفارسى داريوس الذى سمح لهم بإعادة بناء معبد اليبوسيين القديم. فليس هناك دليل تاريخى على أن بنى إسرائيل قد سكنوا أورشليم قبل أن يدمرها الملك البابلى نبوخذ نصر فى القرن السابق ، حيث كانت لهم عدة أماكن مقدسة فى أعالى الجبال بالمناطق المحيطة بها . وكان اليبوسيون من الأقوام السامية التى خرجت من الجزيرة العربية وكنت مدينة القدس منذ الألف الثالثة قبل الميلاد ، وحتى أن قضى عليهم البابليون الذين تركوا المدينة خرابا ، وتدل البقايا التاريخية على أن منطقة القدس قد خضعت للسيادة المصرية منذ عهد تحتمس الثالث ، الذى أقام أول إمبراطورية تمتد حدودها بين النيل والفرات ، عند منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وعندما جلس أمنحتب الثالث على عرش مصر كان الثراء قد

وصل إلى درجة لم يصل إليها من قبل ولا هو وصل إليها فى أى عصر لاحق .

واستطاع الملك الذى ساد السلام فى عصره أن يستخدم هذا الثراء فى البناء والمعمار ، سواء فى مصر أو فى بلاد سورية وكنعان ، حيث شيد المعابد والقصور والمدن المحصنة ، وكان لوجود عدد كبير من أسرى الحروب فى ذلك الزمان أثر فعال فى ازدياد القوى العاملة التى تم استخدامها فى أعمال قطع الحجارة والبناء . كانت هناك حامية مصرية فى شمال قلعة القدس ، وكل الدلائل تشير إلى أن الملك المصرى هو الذى بنى أول معبد هناك ، كما تتفق التفاصيل التى وردت فى القصة مع أشكال المعابد المصرية التى بناها الملك فى بيسان وماجدو وحاصور .

وتؤكد رسائل تل العمارنة - التى أرسلها حاكم القدس إلى إخناتون - أن المصريين قد تركوا حامية حربية من الفرسان عند مدينة القدس ، والمرجح أنهم أقاموا بالمنطقة الواقعة شرقى المسجد الأقصى ، وظلت السيادة المصرية على المنطقة حتى أيام رمسيس الرابع عند نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد .

وبينما يقول سفر صموئيل الثانى بأن الملك داوود استولى على قلعة أورشليم - عند نهاية القرن الحادى عشر قبل الميلاد - فإن أعمال الحفر الأثرى لم تنجح حتى الآن فى العثور على ما يثبت هذه الرواية . والأرجح

اعتمادا على الأدلة التاريخية ، أن مدينة القدس ظلت مدينة يبوسية حتى تم تدميرها على يد رجال نبوخذ نصر .

ومنذ أن أعاد نحميا بناء مدينة القدس وجلب الأقوام اليهودية لسكناها ، أصبح حكام المدينة من بين طبقة الكهنة الذين أشرفوا على طقوس العبادة بالمعبد الجديد عند الصخرة .

إلا أن بعض اليهود - وعلى رأسهم جماعة قمران - كان يعارض سيادة الكهنة ، سواء على النظام السياسى والاجتماعى ليهودا أو حتى بالنسبة إلى مسائل العبادة وقضايا الاعتقاد .

لغز الكنز المفقود
واستطلاع النجوم وعلامات الأمير القادم

عندما عثر بدو التعامرة على أول كهف بمنطقة قمران فى ربيع ١٩٤٧ بالقرب من البحرالميت ، كانت فلسطين لا تزال تحت الحماية البريطانية ومدينة القدس والضفة الغربية فى أيدى الفلسطينيين ، إلا أن إليعازر سوكينوك وابنه إيجال يادين تمكنا من شراء المخطوطات السبعة التى عثر عليها التعامرة ، لحساب الجامعة العبرية بالقدس ، وهكذا أصبحت مخطوطات الكهف رقم (١) كلها فى حوزة الجامعة العبرية . ثم نشبت الحرب العربية الإسرائيلية على أثر إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ فى ١٥ مايو ، وعندما تم إعلان الهدنة فى ٧ يناير ١٩٤٩ ، أصبحت منطقة قمران - التى تقع فى الضفة الغربية - تحت سيطرة المملكة الأردنية الهاشمية .عندئذ بدأ الأردنيون ينظمون عمليات أثرية للبحث عن المخطوطات .

وأصبح الكاهن الفرنسى رولاند دى فو - مدير الإيكول دى فرانس بالقدس - هو المسئول عن عمليات البحث الأردنية ، وبالتالى عن عمليات إعداد وترجمة ونشر النصوص التى عثر عليها ، وعثر الأثريون على العديد من المخطوطات الجديدة موزعة على ١١ كهفا ، فقامت الحكومة

الأردنية عام ١٩٥٣ بتشكيل لجنة عالمية من ثمانية باحثين لتولى عملية إعداد المخطوطات ونشرها - برئاسة دى فو - حضر جميعهم للعمل بالقدس .

ونشبت الحرب ثانية بين العرب وإسرائيل عام ١٩٦٧ ، وكان من نتيجتها سقوط الضفة الغربية كلها تحت السيطرة الإسرائيلية ، ومن بينها متحف القدس . ولم يتمكن الإسرائيليون فى البداية من العثور على مخطوطات قمران فى أى من قاعات العرض بالمتحف الفلسطينى ، وظنوا أنها لابد وأن تكون قد نقلت إلى عمّان ، إلا أنهم وجدوها بعد ذلك مخبأة فى خزانة سرية مبنية داخل أحد الجدران . وعندما قام المسئولون الإسرائيليون بعمل كشف بمحتويات الخزانة ، تبين أن بها كل مخطوطات كهوف قمران عدا واحدة ، هى المخطوطة النحاسية التى كانت عندئذ بالعاصمة الأردنية .

وكان الأثريون التابعون للسلطات الأردنية قد عثروا عام ١٩٥٢ على مخطوطة من رقائق النحاس مدفونة فى أرضية الكهف رقم (٣) .

ففى ١٤ مارس ١٩٥٢ وجد الأثريون كهفاً به مخطوطات - عرف فيما بعد بالكهف رقم (٣) - كان سقفه قد انهار فى الأزمنة القديمة . وهنا وجد الأثريون بعض القصاصات الجلدية ، وحوالى أربعين زلعة خالية ،

إلا أنهم وجدوا المخطوطة النحاسية - طولها متران و٤٦ سنتيمتر - مقطوعة إلى جزئين ، ومدفونة عند مدخل الكهف . وتم نقل المخطوطة إلى متحف فلسطين بالقدس ، حيث ظلت هناك ثلاثة أعوام حتى تقرر إرسالها إلى إنجلترا لتقطيعها . وكان النحاس قد تأكسد بفعل الرطوبة وأصبح من الصعوبة فتحها ، فأرسلتها السلطات الأردنية إلى البروفسير رايت بيكر - أستاذ الهندسة الميكانيكة فى كلية مانشستر البريطانية للعلوم والتكنولوچيا - الذى قام بتقطيعها إلى ٢٣ جزءاً مستطيلا وأعادها إلى العاصمة الأردنية عام ١٩٥٦ .

وتبين أن بها نصاً عبرياً فى ١٢ عمودا - وإن تضمن بعض العلامات السرية والحروف اليونانية - يحتوى على كتابات ذات طابع غير دينى ، وإنما ورد به ذكر عن بعض الكنوز من الذهب والفضة ، مخبأة فى أربعة وستين موقعا سريا بمواقع مختلفة من فلسطين . وتمكن چون اليجرو - أحد الثمانية الذين عهدت إليهم السلطات الأردنية بدراسة وترجمة المخطوطات - من الحصول على صورة فوتوغرافية لشرائح المخطوطة النحاسية ، وكان أول من قام بترجمتها إلى الإنجليزية عام ١٩٦٠ .

إلا أن دى فو عهد إلى ميليك - وهو قس وباحث بولندى كان يعمل فى المعهد الفرنسى وأصبح واحداً من الثمانية المسئولين عن مخطوطات قمران - بعمل ترجمة ثانية للمخطوطة النحاسية ، نشرتها جامعة

أكسفورد ١٩٦٢ . وتختلف ترجمة النص التى قام بها اليجرو اختلافا كبيرا عن الترجمة التى قام بها ميليك فى مواضع كثيرة . وتبلغ مجمل عناصر الكنز المختفى حوالى ثلاث آلاف وزنة من الفضة وألف وثلاثمائة وزنة من الذهب إلى جانب خمسة وستين قضيبا من الذهب والفضة ، عند حساب الوزن الإجمالى لهذه الأعداد يتبين أنها تبلغ ٦٥ طنا من الفضة و٢٦ طنا من الذهب .

ونشأ خلاف بين چون اليجرو وبين باقى أعضاء الجماعة المشرفة على دراسة المخطوطات ، عندما بدأ يتحدث فى جامعة مانشستر - الذى كان يعمل بها أستاذا للدراسات السامية - عن تفاصيل اكتشاف المخطوطة النحاسية ودلالاتها ، فقد وصلته رسالة من القدس تطالبه بالكف عن الحديث فى هذا الموضوع ، وكان الأب دى فو رئيس جماعة الباحثين ، قد أصدر بيانا أشار فيه إلى أن قصة الكنز هذه ما هى إلا رواية من صنع الخيال ولأن هذه الكمية من المعادن الثمينة كانت تعتبر ثروة هائلة ليس من الممكن لجماعة فقيرة مثل جماعة قمران امتلاكها ، اتفق الأب ميليك مع الأب دى فو على أن قصة الكنز هذه ما هى إلا رواية رمزية ، وهى فى رأيه شبيهة بالقصة العربية المصرية المعروفة باسم « كتاب اللآلئ المدفونة والأسرار الثمينة » ، والتى تحتوى على تعليمات للدلالة على مواقع كنز رمزى له دلالة روحية.

إلا أن اليجرو أصر على القول بأن الكنز الذى تتحدث عنه المخطوطة النحاسية ، إنما هو كنز حقيقى ما زال مختفيا ويجب البحث عنه ، ويستشهد اليجرو بالأوانى الثلاث التى تم العثور عليها تحت عتبة باب مبنى قمران الرئيسى ، ووجد بداخلها خمسمائة قطعة نقدية فضية . كما اعتبر استخدام رقائق النحاس - بدلا من الجلد أو البردى - للكتابة ، دليلا على أن النص يحتوى على معلومات حقيقية وليس مجرد رواية أسطورية ، كما ذهب الباحث البريطانى إلى أن المخطوطة النحاسية والكنز الذى تتحدث عنه ، لاعلاقة بينهما وبين جماعة العيسويين التى سكنت قمران - فهم فى رأيه كانوا فقراء لا يملكون مثل هذه الثروة - وما هذا الكنز إلا ثروة كهنة معبد القدس ، أخفوها قبل محاصرة الرومان للمدينة وتحطيمهم للمعبد .

كتب چون اليجرو فى كتابه عن مخطوطات البحر الميت ، الذى نشرته « پنجوين » عام ١٩٦٤ ، يقول :

« وجدنا فى الأردن تأييدا حارا من صاحب الجلالة الملك حسين وحكومته وقواته المسلحة ، وأصبح الطريق مفتوحا إلى مخزن الكنز الصحراوى الكبير هذا ، كما لم يفتح من قبل . »

واستطاع اليجرو فى مانشستر جمع التبرعات بهدف الذهاب إلى فلسطين على رأس بعثة أثرية تقوم بالبحث عن الكنز المفقود ، وكان يعتقد

بوجود جزء منه تحت مسجد عمر وقبة الصخرة ، ويقول اليجرو فى كتابه « بحث فى الصحراء » إنه حصل على تصريح من خادم مسجد عمر بحفر سرداب تحت أرضية الشرفة بدون أن يتعرض للبناء نفسه ، إلا أن اليجرو وجد نفسه محاطا بالجنود عندما بدأ يحفر أسفل المسجد ، وسرعان ما أجبر على إيقاف العمل فى هذا الموقع . ولم تتمكن بعثة اليجرو فى النهاية من العثور سوى على بعض العملات النقدية وبعض القطع الفخارية .

وبالرغم من هذا استمر باحثون آخرون يؤكدون أن قصة الكنز قصة حقيقية ، فذهب الفرنسى دوبون سومو إلى أنه كان ثروة العيسويين ، بينما اعتقد آخرون بأنه يمثل ثروة كهنة المعبد التى خبأوها عشية هجوم الجيش الرومانى على القدس عام ٧٠ للميلاد ، وأودعوا هذه المخطوطة فى الكهف حتى تدلهم على مواقعها عند انتهاء الاحتلال الرومانى . ومن بين الأسباب التى جعلتهم يؤيدون هذا الاعتقاد ، الأسلوب الواقعى - غيرالخيالى - الذى كتبت به المخطوطة النحاسية ، حيث جاء بها أنه : « فى الحوض الذى تحت السور ، فى الجانب الشرقى ، فى مكان محفور فى الصخر : ٦٠٠ قضيب من الفضة » . و « تحت الركن الجنوبى للرواق فى مقبرة صادق ، وتحت العمود النصفى .. وعاء البخور من خشب الصنوبر ووعاء للبخور من خشب القاسيا » كما ذكرت أنه « فى الحفرة

القريبة ، ناحية الشمال بالقرب من المقابر فى حفرة مفتوحة تجاه الشمال توجد نسخة من هذا الكتاب ، تفسر المقاييس وكل التفاصيل »

وأفادت هذه المخطوطة فى التعرف على بعض المواقع الجغرافية القديمة التى ورد ذكرها كمناطق تم اخفاء الكنز بها ، فمثلا ورد ذكر اسم البركة التى ورد ذكرها فى الإصحاح الخامس من إنجيل يوحنا « فى أورشليم عند باب الضأن بركة يقال لها بالعبرانية بيت حسدا لها خمسة أروقة » ، والتى قيل إنه تم اخفاء بعض الأخشاب وصمغ الصنوبر بها .

والمخطوطة النحاسية هى الوحيدة - من بين مخطوطات قمران - التى لا تزال موجودة فى أيدى السلطات العربية ، حيث أنها محفوظة فى متحف عمّان ، ولم توضع مع باقى المخطوطات فى متحف القدس ، الذى وقع تحت السيطرة الإسرائيلية منذ ١٩٦٧ .

كما وجد نصان فى الكهف (٤) أحدهما مكتوب بالعبرية والآخر بالآرامية ، يرجعان إلى القرن الأول السابق للميلاد ، ويحتويان على كتابات تتعلق باستطلاع الأبراج وكشف الطالع ، تقول بوجود علاقة بين ملامح الإنسان ليس فقط بمصيره ، وإنما بقيمه الروحية كذلك ، كما وأنها تقول بوجود علاقة بين طبيعة كل إنسان والمواضع التى تكون عليها النجوم ساعة ولادته ، والنص العبرى - الذى قام اليجرو بترجمته - مكتوب

على شكل الشفرة ، من اليسار إلى اليمين بدلا من طريقة الكتابة السامية العادية من اليمين إلى اليسار ، كما يحتوى على عدد من الأحرف الفينيقية واليونانية .

ويتحدث هذا النص عن ثلاثة أشخاص ويبين نصيب كل منهم من عناصر النور والظلام ، حيث إن هذه العناصر تدخل فى تركيب شخصية كل إنسان .

ويتضح أن الرجل الأول يحتوى على نسبة عالية من عناصر الشر ـ حيث هناك فى شخصيته ثمانية أجزاء من الظلام مقابل جزء واحد من النور ـ فإن « رأسه سميك وخديه سميكان ، وأسنانه غير متساوية فى طولها ، وأصابعه سميكة وفخذيه سميكان مشعران وأصابع قدميه قصيرة وسميكة ، تتكون روحه من ثمانية أجزاء فى برج الظلام وجزء واحد فى برج النور » .

والرجل الثانى إنسان طيب ، تحتوى شخصيته على ستة أجزاء من النور وثلاثة فقط من الظلام : « أصابع قدمه رفيعة وطويلة ، وهو من البرج الثانى تتكون روحه من ستة أجزاء فى برج النور وثلاثة أجزاء فى حفرة الظلام . وهذا هو يوم ميلاده الذى فيه يولد ، فى قدم الثور ، سيكون حكيما ويكون الثور هو الحيوان الذى يرمز إليه » .

أما الثالث فهو أكثرهم خيرا ، إذ أن شخصيته تتضمن ثمانية أجزاء من النور وجزء واحد من الظلام : «عيناه سوداوتان تلمعان .. وصوته رقيق وأسنانه حسنة ومنتظمة ، وهو ليس بالقصير أو بالطويل » .

أما النص المكتوب باللغة الآرامية فهو يتحدث عن شكل الرجل الذى سوف يظهر فى المستقبل ، ويكون هو أمير الجماعة ، أو ملكها المسوح وتقول إنه سيكون له شعر أحمر اللون وتكون لديه علامة فى فخذه ويبلغ سن الرشد وهو فى الثانية من عمره : « بعد عامين سوف يعرف (كيف يفرق بين شئ وشئ آخر ، وسيكون فى صباه مثل .. رجل لا يعرف شيئا حتى الوقت الذى فيه سيعرف الكتب الثلاثة وعندما يصبح حكيما ويتعلم الفهم .. تأتى إليه الرؤية (ويكون راكعا) على ركبتيه .. ستكون عنده النصيحة والبصيرة ، وسيعرف سر الإنسان وسوف يبلغ بحكمته كل الناس كما يعرف أسرار كل الأحياء ، وتفشل جميع المؤامرات التى تحاك ضده ، ويكون حكمه للأحياء عظيما ، وتنجح خططه فهو مختار الرب »

وليس من المعروف ما إذا كانت جماعة قمران قد استخدموا علم التنجيم للتعرف على أحداث المستقبل أم أنهم استخدموا كتابة مماثلة لاستطلاع الأبراج كرمز لتفسير اعتقاداتهم السرية .

مخطوطة المعبد

ومشروع يادين لخلط مخطوطات قمران مع كتابات الماسادا

منذ اللحظة الأولى لقراءة الترجمة الإنجليزية لمخطوطة المعبد تبين لى أن هذا النص لا يمكن أن يكون مصدره جماعة العيسويين التى عاشت فى قمران ، فهو ليس فقط لا يعبر عن اعتقادات الجماعة ، وإنما يتعارض معها صراحة ، فبينما كان العيسويين يقاطعون طقوس العبادة والاحتفالات الدينية التى يقوم بها الكهنة فى معبد القدس ، وبينما توضح لنا كتاباتهم - مثل مخطوطة دمشق وحرب أبناء النور ضد أبناء الظلام - الطرق الأخرى التى يتبعونها فى تعبدهم، والمواعيد المختلفة لاحتفالاتهم ، إذا بمخطوطة المعبد تقدم لنا تفاصيل الطقوس التى يقيمها الكهنة فى المواعيد التى حدّدوها ، وبينما كان الكهنة يتبعون تقويما قمريا مشتقا من التقويم البابلى ، كان العيسويون يتبعون تقويماً شمسياً قائماً على أساس التقويم المصرى القديم . وظهر ما يؤكد شكوكى عندما علمت بأن مخطوطة المعبد لم تكن من بين المخطوطات التى عثر عليها بدو التعامرة ، ولا هى كانت من بين ما عثرت عليه بعثة الآثار الأردنية ، وإنما ظهرت لأول

مرة فى حوزة الجنرال الإسرائيلى إيجال يادين ، وهو الذى وضعها ضمن مكتبة قمران بعد سقوط القدس عام ١٩٦٧ .

لم تظهر مخطوطة المعبد إلا بعد انتهاء حرب يونيو ١٩٦٧ ، ووقوع متحف فلسطين بالقدس الشرقية تحت السيطرة الإسرائيلية . وكان العمل الأثرى قد انتهى وتوقف العثور على مخطوطات جديدة فى منطقة قمران منذ عام ١٩٥٦ ، الذى جرى خلاله آخر موسم للبحث الأثرى فى خربة قمران . وكان البحث قد امتد جنوبا ـ ليشمل المنطقة الواقعة بين قمران وعين فسخة على ساحل البحر الميت حوالى ثلاثة كيلو مترات جنوبا ـ إلا أنه لم يتم العثور بها على مخطوطات ، ومع هذا فقد بدأت السلطات الإسرائيلية بأعمال كشف أثرى فى المنطقة الواقعة تحت سيطرتها بجنوب البحر الميت ، واستمر الإسرائيليون فى البحث الأثرى خاصة فى المنطقة التى تعرف باسم ماسادا ، وهنا عثر الإسرائيليون على العديد من البقايا الأثرية والمخطوطات.

بعد نهاية حرب ١٩٦٧ أعلن إيجال يادين ـ والذى كان قد خلف أباه سوكينوك كأستاذ للحفريات فى الجامعة العبرية ـ انه حصل على مخطوطة المعبد التى قال إن مصدرها كهف قمران رقم (١١) . ولا أحد يعلم بالضبط كيف حصل يادين على مخطوطة المعبد ، كل ما نعرفه عن ذلك هو ما أذاعه هو . كتب فى ديسمبر ١٩٦٧ بالنشرة الأمريكية

« بيبليكال آركيولوچيت » يقول : « لا يمكننى فى هذه المرحلة الكشف عن الطريقة التى وصلت بها هذه المخطوطة إلى أيدينا » . ومرت أكثر من عشر سنوات قبل أن يعلن يادين أنها تنتمى إلى مخطوطات قمران ، كما لم يتم نشر صور فوتوغرافية أو ترجمة لهذه المخطوطة فى حينه .

ثم ذكر إيجال يادين أحداث ١٩٦٧ إلى ديفيد براى چونز فى مقابلة أجريت فى أوائل ١٩٦٨، وقال إنه كان يعلم بوجود مخطوطات أخرى من منطقة قمران فى أيدى البدو ، وبأن كاندو (خليل اسكندر شاهين) ، التاجر الذى كان مشتركا فى الاكتشاف الأصلى يعرف مكانها ، لذلك فهو (يادين) أرسل أعضاء آخرين من الجامعة العبرية ومعهم ثلاثة ضباط إلى منزل كاندو فى بيت لحم ، وتم أخذ كاندو تحت الحراسة إلى تل أبيب وعندما عاد كاندو إلى الظهور بعد خمسة أيام من الاستجواب ، اصطحب الضباط وعاد إلى منزله وأحضر مخطوطة كانت مخبأة هناك لمدة ست سنوات وتبين أن هذا كان اكتشافا شديد الأهمية - « مخطوطة المعبد » ، والتى تم نشرها للمرة الأولى فى ١٩٧٧ .

والمشكلة هنا أن مخطوطة المعبد - والتى هى أطول وأوضح المخطوطات - تتضمن من الحقائق ما يتعارض تماما مع اعتقادات جماعة قمران بحسب ما جاء فى كتاباتهم . فهى تحتوى على طريقة تنظيم

طقوس العبادة فى معبد القدس ومواعيد وطريقة الاحتفالات الدينية به ونحن نعرف من الكتابات الأخرى أن العيسويين - والذين لم يكونوا يشتركون فى أى من طقوس المعبد - كانوا يعتبرون طائفة الكهنة من أتباع « بليعال » (أى الشيطان) ، ويصرون على أن الكهنة اليهود قد زوروا فى مواعيد الاحتفالات الدينية ودلالاتها ، فهم كانوا يتبعون التقويم الشمسى المصرى ويحددون المواعيد حسبها ، بينما كان الكهنة يتبعون التقويم القمرى - مع بعض تعديلات - فكانت مواعيد احتفالاتهم تقع فى أوقات تختلف عما ذكره موسى فى التوراة .. حيث اتبع موسى التقويم المصرى وهناك احتفال له أهمية خاصة بالنسبة لجماعة قمران ، فهم كانوا يقولون أن « الكاهن الشرير » هجم على «المعلم الصديق » فى « يوم كيپور » (أى يوم الغفران) تم هذا بحسب قولهم فى يوم جمعة وكان أهل الجماعة يقيمون احتفالا كل عام فى نفس هذا اليوم .. وهو المعروف باسم « المائدة المسيحية » وهى تشبه العشاء الأخير لدى المسيحيين وكان هذا التاريخ يوافق احتفال الكهنة بعيد الخروج (من مصر) ، فقد غير الكهنة موعد عيد الغفران .

وتعد مخطوطة المعبد أطول من أى من المخطوطات التى عثر عليها فى كهوف قمران ، إذ يبلغ طولها أكثر من تسعة أمتار ، وتتضمن نصا

مكتوبا بالعبرية يرجع أصله إلى ثلاثة قرون قبل الميلاد ، وإن كان قد أعيد نسخه عند بداية العصر الميلادى . وهو ينقسم إلى أربعة أقسام : قواعد الطهارة والنجاسة ، طريقة الاحتفال بالأعياد ، بناية المعبد ، سلوك الملك الإسرائيلى وجيشه . تتعلق معظم الكتابة الموجودة على هذه المخطوطة بشئون معبد القدس ، من ناحية البناء نفسه والمفروشات الموضوعة به وكذلك طريقة القيام بطقوس العبادة وخاصة تلك التى تتعلق بعملية ذبح الأضحية ، فى أيام السبت وفى الأعياد . وهناك فقرة تتعلق بطريقة عقاب من يخون الأمة اليهودية عن طريق تعليقه على شجرة :

« إذا افترى رجل على قومه وسلمهم إلى أمة أجنبية مسيئا إلى قومه ، فلسوف تعلقونه على شجرة (حتى) يموت » .

والأرجح هو أن يكون إيجال يادين - والذى أشرف بنفسه على عملية الكشف الأثرى فى ماسادا - قد عثر على مخطوطة المعبد هناك ، لأن جماعة الماسادا كانت من اليهود الأصوليين الذين يدافعون عن المعبد وطرق العبادة فيه . وعندما نشب الصراع بين الرومان ويهودا وسقطت مدينة القدس عام ٧٠ فى أيدى الرومان، قام جماعة المتطرفين اليهود بالاحتماء فى قلعة ماسادا ، بنى الملك هيرودوس قلعة ماسادا إلى الغرب من الجزء الجنوبى للبحر الميت ، فوق صخرة عالية عند حافة الصحراء ، حوالى ٢٥ كيلومترا جنوبى « عين جدى » وذهب البعض - يبلغ عددهم

٩٦٠ ـ للاختباء بقلعة ماسادا الواقعة فى منطقة جبلية وعرة ، وظلوا هناك أربع سنوات أخرى .

وأخيرا أرسل الرومان إليهم فرقة حربية لإجلائهم قامت بحصار القلعة . ولما أدرك اليهود أنه لا مخرج أمامهم إلا الاستسلام للرومان ، قام كل رجل منهم بقتل زوجته وأولاده .. ثم اختاروا عشرة منهم ليقتلوا الباقين ، واختار العشرة بعد ذلك واحدا منهم ليقتل التسعة وينتحر فى النهاية . ولم ينجُ من هذه المذبحة الجماعية بالماسادا إلا امرأتان وأربعة أطفال تمكنوا من الاختباء لإنقاذ أنفسهم .

ويبدو أن اليهود كانوا يعتقدون فى ذلك الزمان بقرب قدوم المسيح ، لكن المسيح الذى كانوا ينتظرونه لم يكن هو المخلص الذى انتظره العيسويون ، إنما هو الملك الممسوح بالزيت والذى ـ بحسب اعتقاداتهم ـ سيأتى لينصرهم على أعدائهم ويجعلهم سادة على جميع الشعوب فى مملكة أبدية ـ تعادل الجنة فى اعتقادات المسلمين والنصارى ـ ولكنها تقوم على هذه الأرض . ويقول يوسيفوس فى الكتاب السادس من مجموعة « حرب اليهود » أن الذى دفع اليهود لتحدى سلطة الرومان « نبوءة غير مفهومة كانت موجودة فى كتبهم المقدسة ، تقول بإنه فى ذلك الوقت سيخرج رجل من بلادهم ليصبح حاكما للعالم » ويرى يوسيفوس

أن تفسير هذه النبوءة كان يخص القائد الرومانى فسباسيان الذى تم اختياره امبراطورا بينما كان موجودا فى فلسطين .

ونحن نعلم أن المخطوطات السبع التى تم العثور عليها أولا عام ١٩٤٧ قد سبق أن اشتراها إيجال يادين وأبوه سوكينوك .. وتم نشرها جميعا ، ثم ذهبت كل المخطوطات التى تم العثور عليها بعد ذلك إلى السلطات الأردنية . فلا يعقل أن يظل كاندو يحتفظ بمخطوطة المعبد لمدة ثلاثين عاماً دون أن يبيعها أو يسلمها إلى السلطات الأردنية ، ولكن يادين يشير إلى أن هذه المخطوطة لم يعثر عليها كاندو إلا قبل ست سنوات فقط أى فى عام ١٩٦٠ ، وإذا كان يادين هو المصدر الوحيد لقصة العثور على مخطوطة المعبد ، فليس من الممكن قبول شهادته ، إذ سبق له أن زعم بأن مدينة « حازورة » القديمة قد تحطمت بالنار ـ حتى يثبت صحة قصة التوراة فى استيلاء بنى إسرائيل على أرض كنعان خلال القرن ١٣ ق . م . ـ ثم تبين أن كل آثار النيران التى عثر عليها يادين كانت عبارة عن رماد مذبح المعبد .

وكان الچنرال يادين من أولئك الذين يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وهو فى سبيل إثبات الحق التاريخى لليهود على أرض فلسطين ، مستعد لتزوير الحقائق .

والمسألة هى أنه هناك جماعة يهودية أورثوذوكسية متطرفة تعرف باسم « سيكارى » ـ هى على النقيض من جماعة العيسويين ـ كانت تسكن فى منطقة أخرى من جبال البحرالميت عند « عين جدى » و « الماسادا » فى الجنوب ، وتم العثور فى كهوف هذه المنطقة على بقايا لهذه الجماعة ، عثر عليها الإسرائيليون .. ومن الطبيعى أن تكون « مخطوطة المعبد » قد أتت من هناك .

وهناك من الأسباب مايبرر محاولة الخلط المتعمد هذه لأمثال يادين من الباحثين ، ذلك أن القادة الذين حاربوا من أجل بناء دولة إسرائيل الحديثة يبحثون دائما عن أصل تاريخى يدعم حقهم فى الأرض التى جاءوا إليها من شرق أوروبا ، وبينما تهاجم كتابات العيسويين فى قمران قيادة الكهنة والدولة اليهودية التى قضى عليها الرومان ، فإن كتابات الماسادا تعبر عن كفاح وتضحية بالنفس فى سبيل الدفاع عنهم .

ومن بين المتزعمين لهذه النظرية « روبرت أيزنمان » الأستاذ بجامعة ولاية كاليفورنيا الذى يصمم على أن مخطوطات قمران كانت للمتطرفين اليهود وليست للعيسويين . فبالرغم من إجماع الآراء الآن بأن مخطوطات قمران تعود إلى القرن الثانى قبل الميلاد ـ بما فى ذلك نتيجة تحليل الكربون ١٤ ـ فهو يقول أن هذه النصوص لم يتم كتابتها إلا فى منتصف

القرن الميلادى الأول ، حتى يمكنه استنتاج أن بولس الرسول - الذى يزعم أنه يمثل « الكاهن الشرير » عند العيسويين ، - هو الذى اعتدى على « المعلم الصديق » والذى يعتبره كان يهوديا اسمه « جيمس » ، فأيزنمان يعتبر أن جماعة قمران كانت جماعة يهودية أورثوذوكسية تعادى الرومان وليس الكهنة .

وهكذا نجد أن الأهداف السياسية تلعب دورا كبيرا فى تزييف الحقائق التاريخية وتضليل الباحثين ، ولا أعتقد أن واقعة يكون الشاهد الوحيد عليها هو الچنرال إيجال يادين ، يمكن اعتبارها قصة حقيقية فكيف تكون مخطوطة المعبد والتى تتضمن الأعياد والتقويم الذى أنشأه الكهنة والذى يخالف تعاليم الجماعة ، جزءا هاما من كتابات العيسويين ؟

هيئة الآثار الإسرائيلية تفرض سيطرتها على المخطوطات

كان العثور على مخطوطات عبرية وآرامية قديمة فى كهوف منطقة قمران - غربى شمال البحر الميت - فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، بمثابة أمل جديد للتعرف على أحداث التاريخ القديم فى فلسطين فى الفترة ما بين القرن الثانى السابق للميلاد ونهاية القرن الميلادى الأول . ففى هذه الفترة انتهت الديانة اليهودية التى أقامها الكهنة وبدأت يهودية الأحبار والتلمود ، وفى هذه الفترة كذلك ولدت الكنيسة المسيحية وساد الاعتقاد بميلاد يسوع المسيح وبعثه .

وازداد شوق الباحثين لقراءة النصوص بعد ترجمتها ونشرها للتعرف على إجابات لأسئلة ظلت تشكل ألغازا مدة ألفى عام . لكن الذى حدث بعد ذلك كان مخيبا للآمال ، فبعد نشر المجموعة الأولى من المخطوطات توقف ظهور أى ترجمات أخرى ، وأسدل ستار الصمت على مضمون المخطوطات وأسرار جماعة قمران . وفى هذا الجو انتشرت الإشاعات ودبرت المؤامرات ، ولاشك أن طبيعة التركيبة الأولى للجماعة المشرفة على إعداد المخطوطات قد ساعدت على حدوث هذه التطورات السلبية ، فبينما سيطرت جماعة الإيكول بيبليك الكاثوليكية الفرنسية على أعمال اللجنة ، استبعدت جماعات لها مصلحة واضحة ، فلم تضم اللجنة أيًا من الباحثين

غير الكاثوليك . ونشب الصراع خفيا بين لجنة المخطوطات وبين سلطات الآثار الإسرائيلية منذ اليوم الأول لسقوط متحف القدس تحت سلطة الاحتلال الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧ ، إلا أن الأمور استمرت على ما كانت عليه لأكثر من عشرين عاما بعد ذلك ، قبل أن يبدأ الصراع المكشوف الذى أدى فى النهاية إلى التخلص من السيطرة الكاثوليكية وإحلال سلطة الآثار الإسرائيلية مكانها عام ١٩٩١ .

ففى عام ١٩٩١ ظهر فى لندن كتاب بعنوان « خداع مخطوطات البحر الميت » ، للكاتبين مايكل بيجنت وريتشارد لى ، اتهما فيه الفاتيكان صراحة بالتدخل فى عملية ترجمة ونشر مخطوطات قمران ، ومحاولة إخفاء معلومات وردت بها مخالفة للتعاليم الكاثوليكية . واعتمد المؤلفان فى أدلتهما على التأخير الذى زاد على أربعين عاما فى نشر مخطوطات كهف قمران رقم (٤) . فمن بين خمسمائة نص عثر عليها فى هذا الكهف لم ينشر إلا حوالى المائة ، كما وأن أعضاء لجنة المخطوطات لم يسمحوا لأحد بالاطلاع على ما تحت أيديهم منها . وقال المؤلفان بأن الإيكول بيبليك - المسيطرة على أعمال اللجنة - تخضع فى عملها لبابا الفاتيكان مباشرة ، وأن هذا الولاء يهدد بضياع أى نص قد يتعارض صراحة مع مصلحة الفاتيكان .

ثم بدأت حملة إعلامية كبرى فى أواخر ١٩٩٠ وأوائل ١٩٩١ خاصة

فى الصحف الأمريكية مثل النيويورك تايمز والواشنطون بوست ، تهاجم مجموعة الباحثين المسئولة عن ترجمة ونشر المخطوطات ، وتتهمهم بالاشتراك فى مؤامرة يحيكها الفاتيكان لمنع نشر بعض ما ورد بنصوص قمران .

كما انتشرت عدة شائعات بوجود مؤامرة لاخفاء بعض محتويات مخطوطات قمران لأن محتوياتها سيكون لها تأثير سلبى على بعض المعتقدات اليهودية والمسيحية ، ولم تكن لجنة المخطوطات تضم بين أعضائها أيًا من اليهود أو المسلمين أو المسيحيين التابعين للكنائس الشرقية .

تم ترجمة ونشر المخطوطات السبع التى عثر عليها بداية فى الكهف رقم واحد فى الخمسينات بعد فترة قصيرة من العثور عليها ، وبحلول عام ١٩٥٦ - وكانت لا تزال تحت أيدى سلطات الآثار الأردنية - كانت جميع النصوص التى عثر عليها فى كهف قمران رقم (١) قد تم ترجمتها ونشرها . كما تم ترجمة ونشر المخطوطات التى عثر عليها فى الكهوف (٢) ، (٣) و (٥) و (١٠) فى عامى ١٩٦١ و ١٩٦٢ والتى تعتبر قليلة الأهمية فى محتواها ، كما نشرت محتويات الكهف (١١) فى السبعينات . إلا أن المشكلة الحقيقية تتعلق بمحتويات الكهف (٤) حيث عثر به على عشرات الآلاف من القصاصات الصغيرة .

وفى عام ١٩٥٢ قام البريطانى لانكستر هاردنج - وكان يشغل منصب مدير هيئة الآثار الأردنية - بتعيين الأب دى فو - الكاثوليكى الفرنسى الذى كان مديرا لمعهد الإيكول بيبليك الدينى بالقدس - رئيسا للجنة المسئولة عن إعداد قصاصات الكهف رقم (٤) ونشرها ، وتم اختيار عدد من الباحثين العالميين المتخصصين فى الدراسات السامية لمعاونة دى فو وهم :

الفرنسى جين استاركى والبولندى ميليك والأمريكيين فرانك مور كروس وباتريك سكيهان والبريطانيين چون اليجرو وچون استيرجنيل والألمانى كلاوس هونو هانزنجر ، إلا أن الأخير انسحب عام ١٩٥٨ وحل مكانه الفرنسى موريس بيليت ، وتم تقسيم النصوص على أعضاء اللجنة ، وقدم روكفلر منحة تم الاتفاق منها على العمل مدة السنوات الأولى .

واجه أعضاء اللجنة مهمة عسيرة فى محاولتهم ترتيب عشرات الآلاف من القصاصات الصغيرة من الجلد أو أوراق البردى ، ثم تجميع هذه القصاصات على أساس التشابه فى نوع الخط أو موضوع الكتابة والتعرف على مكان كل منها فى المخطوطة بشكلها الأول قبل تمزقها ، ولم تكن هذه هى المهمة الوحيدة التى كان عليهم القيام بها ، إذ إن معظم هذه القصاصات كانت متسخة ومنحنية فكان عليهم أولا تنظيفها بعناية حتى لا تتأثر الكتابة ، ثم حفظها بين

سطحين من الزجاج الشفاف لتسويته وحمايتها .

وتمكن الباحثون من تقسيم آلاف القصاصات إلى مايزيد على خمسمائة قسم ، كل منها يمثل مخطوطة أصلية . أى أنهم توصلوا إلى أن عدد المخطوطات المحفوظة بالكهف رقم (٤) كان ٥٠٠ ، وبالطبع فإن هذا العمل يحتاج إلى صبر ودقة فى العمل ووقت طويل ، خاصة أن عدد الباحثين العاملين كان صغيرا .

إلا أنه منذ وقوع متحف القدس فى أيدى السلطات الإسرائيلية لم يتم نشر سوى عدد قليل من المخطوطات التى تم تجميعها من الكهف الرابع ، وأذاع چون اليجرو أخبارا تفيد بأن الجماعة الكاثوليكية المسيطرة على لجنة المخطوطات ، تتعمد إخفاء ما تتضمنه بعض النصوص نظرا لمخالفتها لتعاليم الكنيسة . ذلك أن غالبية النصوص التى عثر عليها فى الكهوف الأخرى كانت عبارة عن نسخ من كتب العهد القديم ، ليس بها معلومات هامة عن جماعة قمران ومعتقداتها الخاصة ، بينما تتضمن مخطوطات الكهف (٤) العديد من كتابات الجماعة نفسها ، وطريقة تفسيرها للكتب التوراتية . إلا أن سلوك اليجرو نفسه كان غريبا إذ أنه نشر كتابا عام ١٩٧٠ بعنوان « الفطر المقدس والصليب » ذهب فيه إلى أن المسيح كان شخصية غير تاريخية ، وأن الجماعة المسيحية الأولى

كانت تستخدم الفطر المخدر فى طقوسها الدينية . وبالطبع فإن أحدا لم يأخذ روايات اليجرو بعد ذلك على محمل الجد .

ومع مرور الزمن مات بعض أعضاء اللجنة الثمانية الأوائل ، مات دى فو المشرف على اللجنة فى ١٩٧١ وحل محله فى رئاسة اللجنة بيير بينوا الذى صار مثله مديرا للإيكول بيبليك بالقدس . كما مات جون اليجرو وباتريك سكيهان ، وأصبح جون استروجنيل رئيسا للجماعة على أثر وفاة بييربينوا عام ١٩٨٧ . واستروجنيل أحد الباحثين الغربيين النابغين فى دراسة اللغات السامية ، انجليزى الأصل ولكنه عمل أستاذا لدراسات العهد القديم بمعهد « ديفينيتى كوليدج » بجامعة هارفارد الأمريكية ، وتبين أن استروجنيل - بمناسبة توليه الرئاسة - قد ترك كنيسته البروتستانتية وتحول إلى الكاثوليكية .

وكانت العادة أنه عند فقدان أحد أعضاء اللجنة يحل مكانه شخص أخر يتم تعيينه بدلا منه ، حتى يظل مجموعهم ثمانية إلا أن جون استروجنيل كان أول من غير هذا النظام عندما سمح بضم عدد من الباحثين اليهود إلى اللجنة التى زاد عددها إلى ٢٠ عضوا بعد ذلك ، إلا أن هذا الإجراء لم يبد كافيا فى نظر هيئة الآثار الإسرائيلية التى صارت لها السيطرة على متحف القدس وكل ما فيه من مخطوطات البحر الميت .

ومن العبث محاولة الفصل بين رغبة هيئة الآثار الإسرائيلية فى التخلص من چون استروجنيل كرئيس للجنة المخطوطات والأحداث التى تمت بعد ذلك ، فقد بدأت حملة منظمة من الدعاية والإعلام تزعمها ثلاثة من الباحثين اليهود ، هم روبرت أيزنمان - أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة ولاية كاليفورنيا - وجيزا فيرميز - أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة أكسفورد - وهيرشل شانكس - رئيس تحرير مجلة بيبليكال أركيولوجى بواشنطون - تتهم استروجنيل بالتآمر لإخفاء أسرار المخطوطات وتطالب بالسماح للجميع بالاطلاع عليها ، ثم قام « أمير دروری » مدير هيئة الآثار الإسرائيلية عام ١٩٩٠ بتعيين « إيمانيويل توف » - الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس - مديرا للجنة المخطوطات إلى جانب چون استروجنيل المدير الأصلى .

وبالطبع فإن هذا التصرف لم يرض استروجنيل ، الذى يبدو أنه استفز فى حديث مع صحفى إسرائيلى اسمه « أفى كاتسمان » الذى نشر فى جريدة ها آريتس نص حديث أجراه مع الباحث الإنجليزى اعتبرته السلطات الإسرائيلية « معاد للسامية » . فقد نشرت الجريدة على لسان استروجنيل أنه قال عن اليهودية إنها « ديانة مرعبة » وأنها ماهى إلا « هرطاقة » للديانة الصحيحة ، والتى هى المسيحية .

ولا أحد يدرى على وجه الدقة ما إذا كان جون استروجنيل قال حقا هذا الكلام ، ولا فى أية مناسبة جرى الحديث بينه وبين الصحفى الإسرائيلى . كل ما نعرفه أن هذا كان آخر حديث تنشره الصحافة - سواء فى إسرائيل أو فى أى مكان آخر - على لسان الباحث البريطانى . فقد اختفى استروجنيل بعد ذلك من القدس وظهر فى مستشفى بالقرب من هارفارد ، غير مسموح بلقائه . وقيل إن أحد أبنائه حصل على تقرير طبى بإصابة والده بمرض نفسى خطير ، استطاع عن طريقه الحصول على أمر من المحكمة بفرض العلاج القسرى على الباحث البريطانى .كما قامت جامعة هارفارد فى نفس الوقت بطرد جون استروجنيل من عمله كأستاذ بها . وكان هذا هو آخر ماسمعناه عن رئيس لجنة إعداد مخطوطات قمران للنشر ، الذى عينته السلطات الأردنية عضوا بها عام ١٩٥٤ ،وأمضى ٣٥ عاما من حياته يعمل بها .

وقام أمير دروری باستصدار قرار بفصل استروجنيل من رئاسة اللجنة وتثبيت إيمانيويل توف فى منصبه عام ١٩٩١ . ثم أضافت السلطات الإسرائيلية عددا آخر من الباحثين الإسرائيليين إلى لجنة المخطوطات حتى أصبح مجموعهم خمسين عضوا غالبيتهم من الإسرائيليين.

وفى سبتمبر عام ١٩٩١ أعلنت مكتبة هانتينجتون بسان مارينو ـ كاليفورنيا ، أن لديها صورا فوتوغرافية لجميع مخطوطات قمران ، وأنها سوف تسمح لكل من يرغب من الباحثين بالاطلاع عليها . وقالت جامعة أكسفورد نفس الشئ ، ولا ندرى كيف ولا متى حصلت هذه الهيئات على هذه الصور ، وكل ما أذيع هو أن السلطات الإسرائيلية كانت أرسلت هذه النسخ المصورة لحفظها مع عدم السماح بالاطلاع عليها إلا بتصريح منها .

وقام أيزنمان فى الولايات المتحدة بنشر ترجمة هذه الصور ، كما قام فيرميز فى بريطانيا بنشر الصور وأعلن الجميع أن المشكلة قد انتهت وأن كل المخطوطات قد تم نشرها . وبعد تمثيلية غير محبوكة تظاهرت فيها سلطات الآثار الإسرائيلية بعدم موافقتها على النشر وعزمها على اللجوء إلى القضاء لإيقافه ، سرعان ما أعلنت عدم اعتراضها على هذا النشر . والغريب فى الأمر أن نفس الأصوات التى كانت تطالب بالسماح للباحثين بالاطلاع على المخطوطات المحفوظة بمتحف روكفلر بالقدس ، هى التى أعلنت الآن رضاءها على ما تم ، والاكتفاء بما نشرته مكتبة هانتينجتون وجامعة اكسفورد .

ما هو الدليل على أن ما تم نشره قد أتى من مخطوطات قمران ، وما

هو الدليل أن ما نشر هو كل ما هو موجود فى المتحف ؟ فحتى الآن لم يصدر من الهيئة المكلفة رسميا بإعداد المخطوطات للنشر بيانا بمجمل محتويات الكهف رقم (٤) ولا أية تفاصيل أخرى تؤكد أو تنفى صحة ما تم نشره فى بريطانيا والولايات المتحدة .

ما هى الأسرار العقيقية
وراء إخفاء مخطوطات كهوف قمران ؟

هل صحيح أن مخطوطات قمران تتضمن من المعلومات ما يتعارض مع التعاليم المسيحية ؟

الجواب على هذا السؤال هو قطعا بالنفى ، فليس هناك أى نص ضمن المخطوطات ، سواء المنشور منها أو ما تم اخفاؤه ، يؤثر تأثيراً سلبياً على تعاليم السيد المسيح ، بل على العكس من ذلك فإن ما عثر عليه من مخطوطات فى قمران أظهر وجود جذور عميقة للجماعة المسيحية الأولى . وليس الوضع على نفس الحال بالنسبة إلى يهودية الكهنة التى كانت سائدة فيما بين القرن الخامس قبل الميلاد وحتى قضى عليهم الرومان عام ٧٠ للميلاد .

فمن الواضح أن الصراع بين العيسويين فى قمران وبين الكهنة الصدوقيين فى القدس قد ساعد على تقوية جماعة الفريسيين التى تزعمها الفقهاء الأحبار ، وهم الذين أقاموا الديانة اليهودية الجديدة بعد اختفاء الكهنة منذ نهاية القرن الأول للميلاد ، وقدموا تعاليمهم فى شروحات أصبحت تعرف بعد ذلك باسم التلمود . ولا شك أن مخطوطات قمران توضح لنا مدى الصراع الذى كان قائماً داخل مجتمع يهودا

نفسه ، مما يدل على أنه - حتى لو لم يقم الرومان بذبح الكهنة عام ٧٠ - فإن حركة الفريسيين الشعبية كانت ستحقق من الضغوط ما يؤدى إلى إحلال عقيدتهم التى تقوم على دراسة التوراة وشروحاتها محل طقوس الأضحيات فى المعبد كجوهر للديانة اليهودية .

إلا أن ما أزعج الفاتيكان لم يكن هو تعارض المخطوطات مع المسيحية وإنما تعارضها مع تعاليم الكنيسة الرومانية التى فرضتها على الجماعة المسيحية منذ القرن الثانى للميلاد ، فى محاولتها للسيطرة عليها . ومما لا شك فيه أن لجنة المخطوطات خضعت لضغوط كثيرة من الفاتيكان لعدم نشر كل ما يتعارض مع تعاليم الكنيسة الرومانية ، وليس من المستبعد أن تكون بعض قصاصات قمران قد وجدت طريقها بالفعل إلى مكتبة الفاتيكان ضمانا لئلا ترى النور فى يوم من الأيام .

وحتى نرى ما هو الفارق بين تعاليم الجماعة المسيحية الأولى وما أدخلته عليها كنيسة روما بعد ذلك ، علينا أن ننظر إلى التعاليم التى انتشرت على أساسها الحركة المسيحية بين أمم الامبراطورية الرومانية، وهى موجودة فى كتاب أعمال الرسل ورسائل بولس الرسول بالعهد الجديد . يقول بولس فى الإصحاح ٨ من خطابه الأول إلى أهل كورينث :

« ليس وثن فى العالم وأن ليس إله آخر إلا واحدا . لأنه وإن وجد ما

يسمى آلهة سواء كان فى السماء أو على الأرض كما يوجد آلهة كثيرون وأرباب كثيرون . لكن لنا إله واحد » . ثم يمضى ليقول فى الإصحاح ١١ إن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا جسدى المكسور لأجلكم . اعملوا هذا لذكرى . وكذلك الكأس أيضا بعد ما تعشوا قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى أعملوا هذا كلما شربتم لذكرى . فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجئ » . ثم يذكر فى الإصحاح ١٥ : « المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب (كتب الأنبياء بالعهد القديم) . وأنه ظهر لصفا ثم لاثنى عشر . وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمئة أخ » .

ويقول بولس فى أهم خطاب له الذى وجهه إلى أهل غلاطية ، بالإصحاح الأول : « أعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب إنسان . لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا علمته . بل بإعلان يسوع المسيح » . ثم يقول بولس فى الاصحاح الثانى من رسالته إلى أهل تسالونيكى : « أيها الإخوة صرتم متمثلين بكنائس الله ... فى المسيح يسوع لأنكم تألمتم أنتم أيضا من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها كما هم أيضا من اليهود الذين قتلوا السيد يسوع وأنبياءهم واضطهدونا نحن . وهم غير مرضين لله وأضداد لجميع الناس ، يمنعوننا عن أن نكلم الأمم

لكى يخلصوا حتى يتمموا خطاياهم كل حين ».

ولسوف نرجع إلى الحديث عن من قالوا إنهم قتلوا المسيح عند الحديث عن مخطوطات نجع حمادى ، ويكفى هنا توضيح الفكرة التى كانت سائدة فى تلك الفترة من أن المسيح لم يواجه نهايته على أيدى بونتياس بيلاطس الرومانى وإنما على أيدى كهنة اليهود .

ونحن نجد أن جوهر الاعتقاد الذى قامت عليه الحركة المسيحية الأولى هو أن المسيح واجه الموت بسبب كهنة اليهود ، وأنه قام من بين الأموات ، وأن من يعتقد فى قيامته ويتعمد بالماء على هذا الاعتقاد ، تكون له الأبدية فلا يموت أبدا . وليس معنى هذا خلود الجسد وإنما خلود الروح . فلم يكن الكهنة الصدوقيين يعتقدون بوجود كيان روحى للانسان ، وإنما هو الجسد الذى يفنى بانتهاء الحياة . فجوهر الفكرة المسيحية هو أن الكيان الإنسانى يتكون من جزء روحى من عند الله ، وجزء مادى. وإنه - عند الموت - يفنى الجسد المادى وتبقى الروح إلى يوم البعث فى آخر الأيام ، عندما يعود المسيح للقضاء نهائيا على الظلام والشر ، ويبعث الموتى للحساب .

ونحن نجد أن هذه الأفكار بعينها موجودة فى كتابات جماعة قمران ، التى كانت تنتظر عودة المعلم الصديق وتؤمن بقيامته . إلا أننا لا نجد ذكرا فى كتابات بولس عن ميلاد المسيح فى بيت لحم أو خروجه من

الناصرة أو صلبه على يد الحاكم الرومانى . فهذه النقاط غير موجودة فى أى من رسائل العهد الجديد ، وإنما ظهرت منذ نهاية القرن الأول للميلاد فى روما والكنائس التابعة لها . وعلى هذا فإننا لو نظرنا إلى تعاليم المسيحية كما نشرها بولس الرسول ، لوجدنا أن جماعة قمران العيسوية تؤمن بذات الرسالة ، والتى جوهرها خلود الروح وعودة المعلم فى نهاية الأيام . أما إذا نظرنا إلى قصة ميلاد بيت لحم وصلب الرومان ، فنحن لا نجد ذكرا لهذه الأحداث لا فى كتابات قمران ولا فى رسائل بولس ولا فى كتاب أعمال الرسل .

جاء فى كتاب تفسير سفر حبقوق الذى عثر عليه فى قمران أن « الكاهن الشرير » كان هو المسئول عن نهاية « المعلم الصديق » ، كما ساد الاعتقاد فى جماعة قمران بأن كهنة اليهود الذين يقيمون فى معبد القدس كانوا هم خلفاء هذا « الكاهن الشرير ». وعلى هذا - بينما كان كهنة المعبد يقدمون الأضحية فى يوم الغفران ، كانت جماعة قمران تقيم مأدبة العشاء المسيحى فى تلك الليلة بدون ذبيحة ، حيث يعتبرون أن معلمهم كان هو الأضحية فى هذا اليوم . كما لا يوجد أى ذكر فى كتاب أعمال الرسل أو فى أى من الرسائل التى وردت فى العهد القديم - وهى الكتابات الأقدم تاريخا - إلى واقعة صلب الرومان للمسيح ، وإنما هناك اتهام صريح بأن كهنة إسرائيل هم المسئولون عن موته .

ولم يرد ذكر لهذه الحادثة كذلك فى أى من الأناجيل القبطية التى عثر عليها بنجع حمادى بصعيد مصر ، وإنما كان أول ذكر لها فى أناجيل العهد الجديد الأربعة التى لم يتم كتابتها إلا بعد موت بولس فى بداية ستينات القرن الأول ، ودمار معبد القدس عام ٧٠ . فطالما أن تاريخ جماعة قمران ومخطوطاتها يرجع إلى فترة سابقة على ظهور المسيحية فإن وجود تشابه بين اعتقادات هذه الجماعة والحركة المسيحية بعد ذلك لاشك وأن يفسر على أن يكون اللاحق منهما تأثر بالسابق فى هذا الخصوص . ولهذا فإن بعض الباحثين - أمثال جيزا فيرميز فى أكسفورد - الذين لا يوافقون أيزنمان على تأريخه المتأخر للمخطوطات ، يذهبون إلى القول بأن المسيح كان أحد تلاميذ جماعة قمران .

وعلى هذا فإن جيرميز ومن سار على نهجه من الباحثين الذين هم فى أغلبهم من اليهود ، يعلنون صراحة أن يسوع كان يهوديا مطيعا ولم يكن هو المسيح ، وإنما قام بولس الرسول بتكوين المسيحية .

فنحن بين احتمالين ، إما أن تكون للمسيحية جذور قديمة تسبق العصر الرومانى وإما أن تكون الحركة التي انتشرت أيام الرومان قد تبينت اعتقاداتها من جماعة يهودية سابقة لها فى الوجود .

فقد استند المفسرون على أن المخطوطات ترجع فى كتابتها إلى تاريخ

يسبق ظهور الديانة المسيحية بفترة طويلة ، للقول بعدم وجود علاقة بينها وبين العهد الجديد وقصة المسيح . ذلك أن العامل الأساسى فى تحديد علاقة مخطوطات قمران بالمسيحية يتعلق بتاريخ كتابتها ، وبينما يتفق غالبية الباحثين على تحديد الفترة ما بين النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول للميلاد ، ذهب عدد قليل منهم إلى تحديد تاريخ متأخر لكتابتها ، فى بداية النصف الثانى من القرن الأول للميلاد ، حتى يسمحوا بتفسيرها على أنها تتضمن معلومات عن السيد المسيح . وكتب هيرشل شانكس رئيس تحرير مجلة « بيبليكال أركيلوچى » التى تصدر فى واشنطون ، فى كتاب صدر عام ١٩٩٢ بعنوان « فهم مخطوطات البحر الميت » ، يشرح هذه النقطة :

« يعتمد الرأى الأساسى للتفسير السائد للمخطوطات على تاريخها ، لأن العامل الرئيسى فى تحديد أهمية المخطوطات وعلاقاتها - أو عدم علاقتها - بالنسبة إلى المسيحية ، يتوقف بالطبع على تحديد تاريخها . ولذلك فإنه فى الرأى المتفق عليه - وهو رأى المجموعة (التى تشرف على المخطوطات) ، فإن نصوص قمران تؤرخ إلى فترة طويلة قبل العصر المسيحى .

وكل ما قد يفسد هذا التاريخ المأمون وتسلسل الأحداث كما حددتها

اللجنة العالمية لكل مجموعة النصوص ، كان يتم كتمانه . وعندما تم تحديد تاريخ بشكل مأمون فى زمن سابق على الأزمنة المسيحية ، فإن المخطوطات أصبحت خالية من أى احتمالات للتعارض مع تعاليم العهد الجديد وتقاليده . وبهذه الطريقة فإن اللجنة خلصت مخطوطات البحر الميت بطريقة فعالة ، من أية طبيعة متفجرة قد تكون فيها ... وتم تجاهل الأدلة المتعارضة ... كما حاولت اللجنة أن تباعد بين جماعة العيسويين فى قمران وبين الجماعة المسيحية الأولى ، وتجاهلت الاعتقادات ذات الطابع المسيحى الواضحة فى كتابات الجماعة » .

وبينما تعتقد باربارا ثيرنج أستاذة الدراسات المسيحية بجامعة سيدنى باستراليا بأن « المعلم الصديق » الذى ورد ذكره فى كتابات قمـران ، ما هو إلا يوحنا المعمدان ، يذهب أوتو بتز أستاذ جامعة توبينجن الألمانية إلى أن المعمدان كان واحدا من جماعة قمران . كما حاول جوزى أوكلاهان إثبات أن بعض أجزاء من أنجيل مرقص وكذلك كتاب أعمال الرسل ورسالة بولس إلى أهل رومية ، قد وجدت بين نصوص مخطوطات قمران . بالرغم من أن جوزى أوكلاهان هذا من الجزويت الإسپان ، أى أنه ينتمى إلى الكنيسة الكاثوليكية ، كما أن الذى نشر رأيه هذا كانت مطبوعات كاثوليكية مثل « بيبليكا » و« سيفيتا كتوليا » .

على الرغم من أن أكثر الهجوم على أعضاء لجنة المخطوطات واتهامهم بالتعمد بإخفاء كل ما يثبت علاقة جماعة قمران بالجماعة المسيحية الأولى ، بل وبالتآمر مع الفاتيكان لكتمان مضمون هذه النصوص ، جاء من كاتبين بريطانيين هما مايكل بيجنت وريتشارد لى ، إلا أنهما لم يكونا صاحبى هذا الرأى . وإنما كان هذان ـ كما صرحا فى كتاباتهما ـ يعبران عن اعتقادات شخص آخر ، هو الأمريكى روبرت أيزنمان . فأيزنمان يرفض ما اتفق عليه من أن جماعة قمران كانت من العيسويين التى جاء ذكرها فى كتابات فيلو ويوسيفوس وبلينى ، وإنما هم فى رأيه جماعة أصولية يهودية ، كما أن « المعلم الصديق » زعيم الجماعة كان ـ فى رأيه ـ هو جيمس ، الذى ورد ذكره فى العهد الجديد على أنه « أخو السيد » . ويقول أيزنمان بأن جيمس قاد الجماعة فى تمردها على سلطة الحكم الرومانى فيما بين ٦٦ و ٧٠ ميلادية ، الذى انتهى بحرق الرومان لمعبد القدس .

وهكذا ـ فعند أيزنمان ـ لم تكن جماعة قمران من العيسويين المعارضين لسلطة الكهنة ، بل من الأصوليين المنتمين إلى عزرا وصادوق ، من الكهنة الذين عادوا من بابل . وعلى ذلك يكون يوحنا المعمدان ـ بل والمسيح نفسه ـ من بين جماعة الأصوليين اليهود الذين ينتمون إلى الكهنة الصدوقيين . بل إن أيزنمان يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير ، فهو يزعم

أن بولس الرسول - والمعروف أنه أقام الكنائس بين الأمم فى الإمبراطورية الرومانية وهو الذى علمهم الإنجيل - ليس إلا « الكاهن الشرير » الذى اعتدى على « المعلم الصديق » . وتكون نهاية المطاف فى تفسيرات أيزنمان - الذى لا يوافقه عليها أى من باحثى قمران - هو أن تعاليم بولس ما هى إلا هرطقة يهودية ، وأن الديانة الحقة هى يهودية المعبد ، وأن المسيح لم يكن سوى تلميذ فى جماعة يهودية ولم يأت بتعاليم جديدة . بل إن هذا الباحث قد فسر ظهور الديانة المسيحية على أنه يمثل مؤامرة رومانية ضد كهنة اليهود ، حيث يزعم أن بولس الرسول لم يكن سوى عميل لسلطة الاحتلال الرومانية .

ومن يدقق النظر فى الاتجاه الذى لجأ إليه أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة ولاية كاليفورنيا ، يجد أنه اتجاه له أهداف سياسية فى الدرجة الأولى ، كان أول من نادى بها هو الچنرال إيجال يادين . ذلك أن يادين هو الذى ادعى أن مخطوطة المعبد - التى هى جزء من كتابات الأصوليين اليهود - إنما جاءت من كهف قمران رقم (١١) . وهو بهذا كان أول من حاول تغيير طبيعة جماعة المخطوطات ، فبدلا مما اتفق عليه من أنهم من العيسويين المنشقين على المعبد وكهنته ، فهو جعلهم من غلاة المدافعين عنهم ، والسبب فى هذا التزوير المتعمد بلا شك هو تحويل مخطوطات قمران من دليل على فشل يهودية الكهنة وحكمهم ، حتى تصبح رمزا

قوميا لبطولتهم فى مقاومة الاحتلال الرومانى .

وأهم من هذا فإن الحركة المسيحية التى انتشرت بين الأمم لا تمثل سوى هرطقة تزعمها بولس الرسول ، خارجة عن الشرعية الكهنوتية . وكانت المرحلة الثانية لمشروع يادين هو قيام بعض الباحثين فى الغرب - من أمثال أيزنمان وتابعيه - بتقديم هذه النظرية للعالم على شكل أكاديمى جاد وبأسلوب شعبى يساعد على الانتشار . أما الجانب الآخر فقامت به هيئة الآثار الإسرائيلية ، فهى انتظرت حتى مات ستة من لجنة الثمانية التى عينتها السلطات الأردنية فى الخمسينات ، وتم إقناع الأب مليليك - الذى يعيش الآن فى فرنسا بعد أن ترك الكاثوليكية ليتزوج - بعدم التحدث عن المخطوطات نهائياً ، كما تم إسكات چون استروجنيل عن طريق الأدوية والمهدئات التى يتعاطاها ، فلم يبق هناك شاهد من هذه المجموعة يستطيع أن يناقض ما تنشره اللجنة الإسرائيلية الجديدة من النصوص ، والتى تهدف إلى مزج مخطوطات قمران مع مخطوطات الماسادا لتغيير طبيعة الجماعة . وهكذا تحول أكبر حلم للتعرف على حقيقة أحداث بداية التاريخ المسيحى ، إلى أكبر مشروع لتزوير حقائق التاريخ فى العصر الحديث .

والسبب الرئيسى لانزعاج الفاتيكان يتعلق بتاريخ ظهورالمسيح ، ولا علاقة له بالاعتقادات المسيحية ذاتها . ذلك أن كنيسة روما حصلت على

السيادة بناءً على رواية نشرتها منذ القرن الثالث تقول فيها بأن بطرس تلميذ المسيح حضر إلى روما وأعطى كهنتها تفويضاً حصل عليه من المسيح نفسه ، يعطيهم الحق فى إصدار الأحكام باسمه . فلو ثبت أن المسيح عاش فى فترة سابقة ، يسقط هذا الادعاء . وأدرك أمثال أيزنمان وفيرميز الموقف الحرج الذى وقعت فيه الكنيسة الرومانية نتيجة للعثور على مخطوطات قمران ، وأرادوا استثمار هذا الموقف لصالح التفسير اليهودى للأحداث .

فاليهود ينكرون أن عيسى هو المسيح وهم لا يزالون فى انتظار مسيحهم ، وعلى هذا فإنهم قد استطاعوا الحصول على الحق بنشر هذا الكلام على الملأ من فوق منابر العالم المسيحى ، دون أن يعترضهم عارض . فقد ظهر جيزا فيرميز على شاشة قناة التلفزيون الرابعة فى بريطانيا وهو يقف أمام بقايا قمران ، ليقول إن يسوع لم يكن هو المسيح وإنما كان رجلا يهوديا طيبا تعلم اعتقاداته من جماعة قمران اليهودية . بل إن هناك مشروعات لإعادة كتابة العهد الجديد بشكل يتفق مع هذا المعنى وتزيل منه أى ذكر لمسئولية الكهنة اليهود عن موت المسيح باعتبار أنه معادٍ للسامية . وطالما أن أحدا لا يعارض بحق كنيسة روما فى السيادة ، فإنه لا مانع لديها فى تغيير ما جاء بالكتابات الأولى لدعاة المسيحية .

مفاجأة فى صعيد مصر
أناجيل قبطية لم تكن معروفة من قبل

أثارت مخطوطات البحر الميت العبرية والآرامية التى عثر عليها فى كهوف خربة قمران بين ١٩٤٧ و ١٩٥٤ جدلا كبيرا بين المتخصصين ، كما أثارت اهتمام القراء فى جميع أنحاء العالم . وكان أهم دوافع هذا الاهتمام ما سوف تكشف عنه دراسة هذه المخطوطات من زيادة فى ما نعرفه عن نشأة الحركة المسيحية الأولى وعن قصة حياة السيد المسيح نفسه . وعلى رغم التشابه الكبير الذى تبين من ترجمة مخطوطات قمران ، بين جماعة العيسويين اليهود وبين الاعتقادات المسيحية الأولى ، إلا أنه لم يتم العثور فى قمران على أى ذكر صريح للمسيح نفسه ، ولم يرد اسم المعلم الصديق ولا الزمن الذى عاش فيه .

كما أن جماعة قمران - على رغم اعتقاداتها ذات الطابع المسيحى - ظلت جزءا من الكيان اليهودى ككل ولم تنفصل عنه ولا هى انتشرت خارجه ، ولهذا أطلق عليها بعضهم لقب « جيدو - كريستيان » أى أنها كانت مسيحية - يهودية ، وعلى كل حال فإن جماعة العيسويين تركت منطقة قمران عند نشوب ثورة اليهود ضد الرومان ، واختفت تماما بعد أن حرق الرومان معبد القدس عام ٧٠ ميلادية ، وليس هناك دليل على أنها

كانت وراء انتشار الاعتقادات المسيحية بين أمم الامبراطورية الرومانية .

وكادت هذه الضجة حول دلالة مخطوطات البحر الميت أن تحجب عن الأنظار أهمية مكتبة أخرى كان قد تم العثور عليها فى صعيد مصر ـ قبل عامين من العثور على مخطوطات قمران ـ مكتوبة باللغة القبطية ، وتتضمن كتابات مسيحية صريحة ، وكانت كنيسة روما منذ أن تحققت لها السيادة السياسية بعد اعتناق الامبراطور قسطنطين للمسيحية فى النصف الأول من القرن الرابع ، قد أمرت بحرق بعض الكتابات التى رأتها متعارضة مع تعاليمها ، مما أدى إلى اختفاء معلومات كثيرة عن تاريخ الجماعات المسيحية الأولى ، خصوصا فى مصر .

فقد اعتبر آباء الكنيسة الرومانية الاعتقادات المصرية هرطقة لا يصح قبولها ، وكان عدد الأقباط المصريين الذين لقوا حتفهم على يد الكنيسة الرومانية أكثر بكثير من أولئك الذين اضطهدتهم السلطات الوثنية الرومانية من قبل . إلا أن بعض الرهبان المصريين أخفى مجموعة من الكتابات القبطية فى أحد الكهوف بصعيد مصر ، وتبين من دراستها أن أهميتها تفوق بكثير أهمية مخطوطات قمران فى التعرف على التاريخ الأول للحركة المسيحية .

وفى اعتقادى الخاص أن الدلالة الحقيقية لمكتبة نجع حمادى سوف تؤدى فى النهاية إلى إدراك أن الحركة

المسيحية التى انتشرت فى ربوع إمبراطورية الرومان لم يكن مصدرها يهوديا وإنما الإسكندرية .

ففى ديسمبر قبل خمسين عاما مضت ـ بعد بضعة أشهر على انتهاء الحرب العالمية الثانية ـ عثر أحد الفلاحين الصعايدة صدفة على مكتبة مسيحية قديمة عند جبل الطارف الذى يحتوى على ١٥٠ كهفا ، كان قدماء المصريين يستخدمونها كمقابر لدفن موتاهم ، ثم استخدمها الرهبان البخوميون فى العصور الأولى للمسيحية مركزا لاعتكافهم وخلوتهم .

كان محمد على السمان وأخوه خليفة يجمعان السباخ بالقرب من جبل الطارف ، على بعد عشرة كيلومترات شمال شرقى مدينة نجع حمادى بصعيد مصر . وفوجئ محمد أثناء حفره لجمع السباخ ، بظهور زلعة مدفونة تبين له عند إخراجها مدى كبرها إذ بلغ ارتفاعها مترا .

وأزاح السمان غطاء الزلعة بحذر شديد ويدين مرتجفتين ، بدأ الأمل يراود الشاب الفقير فى أن يكون بداخل الزلعة كنز من الذهب . واستعجالا فى الحصول على الثروة هوى السمان على الزلعة بفأسه فكسره ، وكانت خيبة أمله عندما لم يعثر بداخلها على ذهب وإنما على مجموعة من المجلدات القديمة .

حمل محمد على السمان وأخوه خليفة المجلدات على ظهر جملهما وعادا بها إلى الدار بقرية « حمره دوم » ، وتركاها بجانب الفرن عسى أن تستخدمها أمهما فى تحمية الفرن للخبيز . فلم يكن ولدا السمان يعرفان القراءة ولم تتبين لهما أهمية هذه الكتب القديمة . إلا أن الأقدار التى حفظت هذه الكتابات أكثر من ١٥ قرنا مدفونة بين المقابر ، شاءت ألا يكون مصيرها الآن هو الضياع إلى الأبد فى نيران آل السمان . فقد اضطر الشقيقان إلى الهرب بعد شهر من العثور على المجلدات ، إذ كانت الشرطة تبحث عنهما بسبب ما قاما به من الثأر لمقتل والدهما ، وخوفا من عثور الشرطة على المجلدات فى المنزل تركاها عهدة لدى القس القبطى بالمدينة .

وعندما شاهد راغب أندراوس شقيق زوجة القس - وكان يعمل مدرسا فى مدرسة القرية - المجلدات ، وتبين له أنها مكتوبة بلغة قبطية قديمة ، أدرك لتوه أن لها قيمة أثرية . فاستعار واحدة منها وسافر بها إلى القاهرة حيث عرضها على صديقه جورج صبحى الذى يجيد قراءة اللغة القبطية .

وأخذها صبحى بدوره وذهب إلى المتحف المصرى ، وقابل مديره الفرنسى إيتيان دريتون . وعندما تبين لمدير المتحف مدى أهمية المجلد ،

أسرع بشرائها لحساب المتحف مقابل ٢٥٠ جنيها . وسرعان ما وجدت باقى المجلدات طريقها إلى تجار الأنتيكة بالقاهرة طمعا فى الحصول على أكبر سعر ممكن . إلا أن مصلحة الآثار حينذاك أدركت أهمية المجلدات وتتبعت خيوط مسيرتها إلى أن عثرت عليها وأخذتها ووضعتها فى المتحف القبطى لحين تأمين المبلغ المطلوب لشرائها .

وكان الدكتور طه حسين قد أصبح وزيراً للمعارف فى حكومة النحاس باشا الوفدية يومها ، وكانت مصلحة الآثار تتبع وزارته فى ذلك الوقت . ولما علم الوزير بقصة المجلدات أسرع بطلب تخصيص مبلغ فى الميزانية الجديدة لشرائها . إلا أن أهم ما فعله هو أنه لم ينتظر حتى اتمام عملية الشراء ، وأصدر تعليماته بالسماح للباحثين المتخصصين بالاطلاع عليها حتى لا يضيع الوقت دون التعرف على مضمونها . ولكن بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قررت الحكومة الجديدة الاستيلاء على المجلدات بدون مقابل باعتبارها ثروة قومية .

وهكذا تمكنت سلطات الآثار المصرية من الحصول على مجلدات نجع حمادى التى تم وضعها فى المتحف القبطى بمصر العتيقة ، إلا أن أحد المجلدات - البالغ عددها ثلاثة عشر - كان قد بيع خارج مصر ، حيث اشتراه معهد يونج فى مايو ١٩٥٢ لإهدائه إلى عالم النفس الشهير كارلز

جوستاف يونج ، زميل سيجموند فرويد ، بمناسبة عيد ميلاده . لكن بعد وفاة يونج - الذى كان من المتأثرين بفلسفة العارفين - أعيد هذا المجلد إلى المتحف القبطى .

وتبين للباحثين أن ما تم العثور عليه فى نجع حمادى ما هو إلا مكتبة كاملة تحتوى على ٥٢ نصا فى ١١٥٢ صفحة ، جمعت فى ١٣ مجلدا ، معظمها مكتوب باللغة القبطية . وكان الكتبة المصريون منذ حكم الملوك البطالمة الإغريق قد استعملوا الحروف اليونانية لكتابة لغتهم المصرية . ولما كانت الأبجدية اليونانية - التى تتكون من ٢٢ حرفاً - ينقصها بعض حروف اللغة المصرية ، فقد أضاف المصريون إليها سبعة أحرف من كتابتهم القديمة .

وجمعت هذه اللغة بين كلمات وقواعد مصرية ويونانية مختلطة . وهذه هى اللغة التى استخدمها الكتبة المصريون فى تدوينهم للكتابات المسيحية ، والتى ظلت هى لغة الصلاة فى الكنيسة القبطية المصرية حتى خمسينات هذا القرن ، عندما تم استبدالها بالعربية .

وفى عام ١٩٥٦ دعت الحكومة المصرية إلى عقد مؤتمر فى القاهرة يضم باحثين من مختلف بلدان العالم ، لوضع خطة لترجمة هذه النصوص ودراستها . إلا أن الاعتداء الثلاثى على مصر فى ذلك العام حال دون

انعقاد هذا المؤتمر . وعادت منظمة اليونسكو فدعت إلى مؤتمر آخر عام ١٩٦١ ، أدى إلى تشكيل لجنة عالمية للعمل . وكان أول ما تم القيام به هو عمل صور فوتوغرافية لجميع المجلدات ، ثم نشرت مجموعة الصور فى مجلد خاص صدر فى مدينة لايدن الهولندية ، حتى تتاح الفرصة لأكبر عدد من الباحثين للاطلاع عليها . وتكونت بعد ذلك لجنة فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ تحت رعاية عالم اللاهوت الأمريكى چيمس روبنسون ـ للقيام بترجمة النصوص . وتم الانتهاء من الترجمة الإنجليزية عام ١٩٧٥، ثم ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية والألمانية .

وتبين أن المجلدات القبطية تحتوى على كتابات مسيحية لبعض الجماعات التى ظهرت عند بداية القرن الميلادى الأول ، كانت تعرف باسم « العارفين » وهى تشبه إلى حد كبير جماعات الطرق الصوفية فى وقتنا الحالى . ويقول العارفون بازدواجية الوجود : الجسد والروح ، العدم والوجود ، وهما فى حالة من الصراع الدائم . وهم ينشدون الوصول إلى المعرفة الحقة التى ـ فى رأيهم ـ ليست هى المعرفة التى يمكن الحصول عليها عن طريق التجربة والحواس ، فهذه جسدية ، وإنما المعرفة الحقة هى فى الوصول إلى معرفة الروح الإلهية العليا .

وهذه لا يمكن التوصل إليها إلا عن طريق معرفة الإنسان لنفسه .

ولهذا فإن العارفين كانوا أول من وضع أسس علم النفس ، وهذا هو سر اهتمام عالم النفس جوستاف يونج بكتاباتهم .

وحتى يتمكن العارفون من الوصول إلى معرفة حقيقية لذواتهم كانوا يتنازلون عن أملاكهم وأعمالهم ، ويخرجون إلى البرية حيث يعيشون حياة النساك العاكفين . وهم لا يأكلون إلا الخبز ولا يشربون سوى الماء ، فالمعرفة الروحية تتطلب - فى اعتقاداتهم - إخضاع الجسد وشهواته والوصول إلى مرحلة الصفاء النفسى ، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم فى التعبد وترتيل الكتابات التى عندهم ، أو القيام بإنشاء كتابات جديدة يقرأونها فى اجتماعاتهم الأسبوعية .

وعلى رغم صعوبة التعرف على بداية التاريخ الذى ظهرت فيه هذه الجماعات إلا أن هناك ما يشير إلى وجودها منذ بداية الحكم الرومانى فى مصر ، عند نهاية القرن الأول السابق على الميلاد . وورد ذكرهم فى كتابات الفيلسوف اليهودى السكندرى فيلو جوديليوس الذى سماهم « سرابيتيه » أو « أهل السراب » . وكانوا مشهورين بقدرتهم على علاج الأمراض المستعصية عن طريق استخدام الأعشاب التى يزرعونها فى الصحراء ، كذلك علاج حالات الأمراض النفسية .

ومن المؤكد أن المسيحية أول ما ظهرت فى مصر كانت بين صفوف

هؤلاء العارفين ، بل أن الأب « يسيبيوس » أول من كتب عن تاريخ الكنيسة المسيحية ذكر أن هؤلاء العارفين كانوا - هم أنفسهم - يمثلون أول كنيسة مصرية .

وتتضمن مكتبة العارفين التى عثر عليها بنجع حمادى عددا من الأناجيل لم تكن معروفة من قبل ، إلى جانب بعض الأشعار والكتابات الفلسفية . فنحن نعرف أن العهد الجديد يحتوى على أربعة أناجيل منسوبة إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وهذه هى الأناجيل التى اعترفت الكنيسة بصحتها . ولكن - بحسب ما تم العثور عليه فى نجع حمادى - من الواضح أنه كانت هناك أناجيل أخرى متداولة منذ القرن الميلادى الأول وحتى القرن الرابع . ومن أهم هذه الأناجيل إنجيل توماس - أو توما - الذى يحتوى على أقوال للسيد المسيح ، بعضها موجود فى الأناجيل الأربعة السابق ذكرها وبعضها غير موجود بها . وكذلك إنجيل مريم المجدلية ، وإنجيل المصريين وإنجيل فيليب وغيرها من الأناجيل .

وبينما يرجع كتابة أناجيل العهد الجديد إلى ما بعد عام ٧٠ ، نجد أن إنجيل توما يعود فى أصله إلى عشرين عاما قبل هذا التاريخ ، وعلى هذا

يصبح هو أقدم الأناجيل المعروفة حتى الآن . وقيل إن اسم « توماس » هذا يمثل الكتابة القبطية لاسم تحوتمس فى المصرية القديمة .

ويبدو أن الجماعات المسيحية الأولى ـ خصوصا تلك التى ظهرت فى مصر ـ كانت لها اعتقادات تختلف عما انتهى إليه آباء الكنيسة الرومانية منذ منتصف القرن الثانى . وعندما بدأ الأساقفة يعيدون تنظيم الحركة المسيحية على أساس من النظام الكهنوتى فى بداية القرن الثالث ، فهم بدأوا ـ خصوصا أساقفة روما ـ بفرض تعاليمهم على الكنائس الأخرى التى اعتبر خلافها ضلالا وهرطقة .

وكانت الكنيسة المصرية هى التى عانت أكثر من غيرها فى هذا الخصوص لرفضها الخضوع لسلطة روما . وعندما اعتنق الإمبراطور الرومانى قسطنطين الديانة المسيحية فى القرن الرابع وأصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية ، زاد نفوذ كنيسة روما التى أمرت بحرق جميع الكتابات التى تختلف معها فى التفسير . وكان هذا هو الوقت الذى تم فيه حرق معبد سرابيوم بالأسكندرية وغالبية المخطوطات التى كانت بمكتبة الاسكندرية الشهيرة والتى أغلقت أبوابها بعد قتل أخر

مدير لها . وكان هذا هو السبب الذى حدا ببعض الرهبان البخوميين فى نجع حمادى إلى إنقاذ هذه الكتب بإخفائها فى الزلعة بين المقابر ، وظلت غير معروفة حتى عثر عليها ولدا السمان منذ نصف قرن من الزمان .

وعلى رغم مرور ما يزيد على العشرين عاما على ظهور الترجمات الإنجليزية والفرنسية والألمانية لكتابات نجع حمادى القبطية ، فإن هذه الأعمال ذات الأهمية العظمى فى تاريخنا القديم - والتى ما تزال مخبأة فى المتحف القبطى بالقاهرة - لا يعلم عنها مثقفونا شيئا ، مثلها فى هذا مثل آلاف النصوص الموزعة بكرم على متاحف العالم من بقايا تراثنا القديم .

مكتبة نجع حمادى القبطية
تعيد كتابة تاريخ الجماعات المسيحية الأولى

لا شك فى أننا لا نهتم اهتماماً كافياً بتاريخ بلادنا ، ولا نريد أن نعرف ما تركه الأجداد منقوشا على الجدران أو مدونا فى المخطوطات . فعندما تم اكتشاف مكتبة كاملة فى كهوف قمران بالضفة الغربية للأردن ، لم نسمح لأى من باحثينا بالاشتراك مع الجماعات الدولية فى دراستها وسلمناها كاملة إلى الآخرين . والعذر الذى طرح لتبرير هذا التصرف الغريب أن هذه المخطوطات فى معظمها مكتوبة إما بالعبرية أو بالآرامية ، ولذلك فهى لا تخصنا . بينما الآرامية ما هى سوى اللغة السورية القديمة ، والعبرية القديمة لم تكن سوى اللهجة الكنعانية الفلسطينية مكتوبة بحروف أرامية ، وليست من إنتاج اليهود وإن كانوا هم الذين استمروا فى استعمالها .

واليوم يمر نصف قرن على اكتشاف مكتبة أخرى سوف تغير كل ما كنا نعرفه من قبل عن تاريخ الجماعات المسيحية الأولى ، ومع ذلك فليس هناك من يهتم بهذا الحدث ، ولا من يعرف ما تحويه هذه المكتبة التى وجدت فى أرضنا وتركها الأجداد مخبأة لنا ، حتى نعثر عليها ونفهم رسالتهم .

ففى ديسمبر منذ خمسين عاما مضت ، عثر الفلاحون المصريون - مصادفة - على مجموعة من المجلدات القبطية ، أصبحت منذ ذلك الحين شغلاً شاغلاً للمئات من الباحثين فى جميع أنحاء العالم إلا نحن .

ومضت أعوام عدة بعد عثور ولدى السمان على مجلدات نجع حمادى ، قبل أن يعلم رجال الآثار المصرية شيئا عنها . فلقد أخفى الفلاحون أمر المخطوطات تماما عن السلطات الحكومية بمجرد إدراكهم لقيمتها الأثرية ، رغبة منهم فى بيعها فى السوق والحصول على مكاسب مالية مقابلها . وعندما طرحت المجلدات فى سوق الأنتيكة بالقاهرة ، سمع رجال مصلحة الآثار - التى كانت تابعة لوزارة المعارف آنذاك - بالموضوع فقاموا بشراء أول مجلد ظهر فى السوق وحفظوه بالمتحف القبطى ، إلا أنهم حتى ذلك الوقت لم يدركوا القيمة الحقيقية لهذه المجلدات ، نظرا إلى عدم وجود خبراء متخصصين للتحقق من أصلها .

وسنحت الفرصة عندما حضر إلى مصر أحد علماء المصريات المتخصصين فى الدراسات القبطية ، فقد ذهب الفرنسى جين دوريس لزيارة المتحف القبطى ، فانتهز مدير المتحف توجو مينا هذه الفرصة لإطلاعه على المجلد الذى بحوزته لفحصه . وازداد حماس مينا عندما أخبره العالم الفرنسى أن اكتشاف هذا النوع من المجلدات سوف يؤدى

إلى تغيير كل ما هو معروف عن أصل الحركة المسيحية .

وأصر توجو مينا على أن تحصل سلطات الآثار المصرية على كل ما عثر عليه من مجلدات ، وعدم السماح لأى منها بمغادرة البلاد ، فقام بإبلاغ رؤسائه حتى وصل الخبر إلى وزير المعارف ، الذى قرر شراء أى مجلد منها يتم العثور عليه لصالح المتحف القبطى .

ولما تعذر للوزير تدبير المبلغ الذى طلبه التجار ، قام رجال الآثار بمصادرة ما وجدوه فى حوزة البائعين ، وقد وصل العدد فى النهاية إلى ١٢ مجلدا تحتوى على ٥٢ نصا .

وقام رجال الآثار بحفظ المجلدات التى فى حوزتهم بالمتحف القبطى إلا أن التجار تمكنوا من تهريب جزء كبير من المجلد رقم ١٣ ـ الذى يتضمن خمسة نصوص ـ إلى خارج البلاد ، وعرضوه للبيع فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولما علم جايلز كيسبيل ، أستاذ تاريخ الديانات بجامعة أوتريش الهولندية بأمر النصوص المعروضة للبيع ، أقنع مؤسسة جوستاف يونج بمدينة زيوريخ السويسرية ـ وهى مؤسسة خيرية باسم عالم النفس الشهير الذى كان زميلاً لسيجموند فرويد ـ بشراء الأجزاء المطروحة للبيع .

وعند اطلاعه على النصوص التى تم شراؤها ، تبين لكيسبيل وجود

أجزاء ناقصة ، فسافر إلى القاهرة للبحث عنها . وبمجرد وصوله إلى القاهرة ذهب إلى المتحف القبطى وحصل على صور فوتوغرافية لبقية المجلدات الموجودة هناك ، وعاد إلى الفندق محاولا فك رموز اللغة القبطية القديمة والتعرف على محتويات الصور . وكانت مفاجأة عندما وجد الباحث الهولندى بداية النص ، وجاء فيها ما يلى : « هذه هى الكلمات السرية التى قالها يسوع الحى ، ودونها ديديموس جوداس توماس » .

وكان قد تم العثور قبل ذلك بنصف قرن - فى مصر أيضا - على قصاصة من ورق البردى تحتوى على جزء من إنجيل توماس ، مكتوب باللغة اليونانية ، وهذه هى المرة الأولى التى يتم فيها العثور على الكتاب كله . كما تأكد كيسبيل عند مراجعته لصور باقى المجلدات من أنها تحتوى على ٥٢ نصا ترجع كلها إلى القرون الأولى للتاريخ الميلادى ، من بينها أناجيل لم تكن معروفة من قبل ، مثل إنجيل توماس - أو تحتمس فى المصرية القديمة - وإنجيل فيليب وإنجيل الحق وإنجيل المصريين ، إلى جانب بعض كتابات منسوبة للحواريين ، مثل كتاب چيمس - يحمس فى المصرية - ورؤيا بولس وخطاب بطرس إلى فيليب .

وليس هناك خلاف بين الباحثين بشأن الوقت الذى تم فيه إخفاء هذه المجلدات ، خلال النصف الثانى من القرن الرابع للميلاد . ومما يؤكد هذا التاريخ أن الكتابات التى وجدت على أوراق البردى المستخدمة فى تبطين

الأغلفة الجلدية للمجلدات تنتمى إلى تلك الفترة . وهذه هى الفترة التى قامت خلالها كنيسة روما - على أثر تحول الإمبراطورية إلى الديانة الجديدة - بإحراق كل الكتابات التى تتضمن معلومات مخالفة لتعاليمها وهى الفترة التى تم فيها حرق مكتبة الأسكندرية - بما فى ذلك معهد اللاهوت المسيحى - التى كانت قائمة فى معبد السرابيوم .

وتقول المصادر القبطية إن القديس مرقس - الذى كتب الإنجيل الثانى من العهد الجديد - جاء إلى الإسكندرية عند منتصف القرن الميلادى الأول ، وعاش به حتى مات عام ٧٤ ودفن بالمدينة . وأصبحت الإسكندرية ومكتبتها المركز الرئيسى للفكر المسيحى خلال القرنين الأول والثانى للميلاد . وهناك العديد من المصادر التاريخية التى تشير إلى تحول مكتبة الإسكندرية فى بداية العصر المسيحى - إلى جانب الدراسات اليونانية - إلى مركز لدراسة الفلسفة المسيحية واللاهوت فى تلك الحقبة .

إلا أن تعاليم الكنيسة المصرية كانت لا تتفق مع تعاليم كنيسة روما فى نقاط عدة ، بل من الممكن القول أنه كان هناك صراع فكرى بين روما والإسكندرية على زعامة العالم المسيحى ، ولم يحسم هذا الصراع لصالح روما إلا بسبب السيطرة السياسية الرومانية على معظم بلدان الحضارات القديمة .

إلا أن خلافا شديداً ثار بين الباحثين عند تحديد الوقت الذى كتبت فيه النسخ الأصلية للنصوص التى عثر عليها فى مكتبة نجع حمادى .

استند بعضه إلى ما ذكره الأب إيرانيوس أسقف مدينة ليون فى كتاب له عام ١٨٠ ، من أن الجماعات الهرطوقية - وهذا هو الاسم الذى كان الآباء الأوروبيون يطلقونه على الحركة التى خرجت من مصر - لديها العديد من الأناجيل التى كانت قد انتشرت فى ذلك الوقت إلى معظم بلدان الإمبراطورية الرومانية ، لتحديد وقت سابق على تاريخ الكتاب عام ١٨٠ بمدة كافية تسمح بظهور هذه الأناجيل وانتشارها .

إلا أن فريقا آخر من رجال الدراسات الإنجيلية رفض قبول هذا التاريخ المبكر لكتابات نجع حمادى ، فإذا كانت هذه كتابات هرطوقية ضالة - حسبما قررت الكنيسة الرومانية - فلابد أن تكون قد ظهرت بعد مدة كافية من ظهور الكتابات الأخرى التى تعتبرها روما ذات طابع أورثونوكسى مستقيم . ولما كان الرأى السائد الآن هو أن أناجيل العهد الجديد ظهرت بين عام ٧٥ ومنتصف القرن الميلادى الثانى ، فإن هؤلاء الباحثين يذهبون إلى تحديد وقت لاحق - خلال القرن الميلادى الثالث - لظهور كتابات نجع حمادى القبطية . وحتى يتم تأكيد هذا التاريخ ، فقد حددوا وقتا متأخراً كذلك لظهور الكتابة القبطية نفسها .

ذلك أن الفكرة السائدة لدى الباحثين الغربيين هى أنه - على رغم وصول الاعتقادات المسيحية إلى مصر خلال القرن الميلادى الأول - إلا أن المصريين أنفسهم لم يتحولوا إلى المسيحية قبل القرن الثالث . وهم مصممون على أن الطوائف المسيحية التى ظهرت فى مصر خلال القرن الأول ، كانت إما من اليهود المقيمين فى مصر أو من اليونان . وعلى هذا فلا يمكن ظهور كتابات مسيحية ترجع إلى هذا التاريخ المبكر باللغة القبطية التى كانت هى كتابة عامة المصريين .

ولهذا - وبدون دليل موضوعى - قام الباحثون الغربيون بتحديد تاريخ ظهور الكتابة القبطية خلال القرن الميلادى الثالث ، أى فى نفس الوقت الذى يحددونه لاعتناق المصريين للديانة المسيحية . ولسوف نعود لمناقشة هذا الموضوع فيما بعد لمحاولة التعرف على التاريخ الحقيقى لظهور الكتابة القبطية ، إلا أننا هنا نكتفى بتوضيح المبررات التى استند إليها الباحثون لتحديد تاريخ متأخر لظهور الكتابات الأصلية لمجلدات نجع حمادى .

إلا أن هؤلاء الباحثين واجهوا مشكلة حقيقية عند محاولة تحديد تاريخ أهم النصوص التى عثر عليها فى نجع حمادى ، ألا وهو إنجيل توماس .

ويختلف هذا الإنجيل عن الأناجيل الأخرى المعروفة فى أنه لا يحتوى

على قصة أو رواية للأحداث ، وإنما يتكون من ١١٤ قولا منسوبة إلى يسوع المسيح . كما أنه من الصعب اعتبار هذا الإنجيل هرطوقيا إذ أنه يحتوى على عدد كبير من أقوال المسيح التى ظهرت فى أناجيل العهد الجديد ، إلى جانب أقوال لم تظهر بها .

كما أن أقوال يسوع هنا موجودة بشكل أولى ولا تدخل فى سرد قصصى ، مما يوحى بأنها أقدم من أى من الأناجيل الأخرى . ولهذا فبينما اقترح الباحث الهولندى كيسبيل عام ١٤٠ لظهور النص الأصلى لإنجيل توماس ، فإن هيلموت كويستر - أستاذ التاريخ المسيحى بجامعة هارفارد وأهم باحث معاصر فى هذا الموضوع - فاجأ الجميع بإرجاعه أصل إنجيل توماس إلى منتصف القرن الميلادى الأول ، أى إلى تاريخ يسبق ظهور أى من كتابات العهد الجديد ، بما فى ذلك رسائل بولس وكتاب أعمال الرسل .

وعندما انتقلت إدارة المتحف القبطى إلى الدكتور باحور لبيب عام ١٩٥٢ ، لم يكن متحمسا فى الإسراع بنشر نصوص نجع حمادى ، وإدراكا منه للشهرة الكبيرة التى سينالها أى باحث يقوم بنشر النصوص القبطية ، قرر عدم السماح لأحد بالقيام بهذا العمل إلا بتصريح منه ، مما تسبب فى تعطيل نشر محتويات مكتبة نجع حمادى لسنوات أخرى .

إلا أن هيئة اليونسكو طالبت عام ١٩٦١ بنشر جميع المجلدات القبطية ، واقترحت تشكيل لجنة عالمية تجتمع فى القاهرة للإشراف على هذا العمل . وقررت اللجنة أن تكون الخطوة الأولى فى نشر النصوص هى تنظيم عملية تصويرها فوتوغرافيا ، حتى تصبح الصور فى متناول أى باحث يرغب فى دراستها . وبالفعل بدأت عملية التصوير التى استغرقت بدورها سنوات أخرى ، ونشرت صورة النصوص فى عشرة مجلدات بين ١٩٧٢ و ١٩٧٧ . ثم قام الأستاذ الأمريكى چيمس روبنسون - مدير معهد دراسات التاريخ المسيحى - بتكوين لجنة دولية لدراسة وترجمة نصوص مكتبة نجع حمادى القبطية ، مما زاد اهتمام طلاب التاريخ المسيحى بتعلم اللغة القبطية ، خصوصا فى جامعة هارڤارد الأمريكية .

ولم تكن مكتبة نجع حمادى هى أول ما عثر عليه فى مصر من كتابات مسيحية قديمة ، مدونة باللغة القبطية . فقبل نهاية القرن الثامن عشر اشترى سائح اسكتلندى مخطوطا قبطيا فى مدينة الأقصر ، كما وجد أحد هواة التحف مخطوطاً قبطيا لدى أحد بائعى الكتب القديمة فى لندن ، وتبين من ترجمة هذه الكتابات أنها تحتوى على حوار بين يسوع المسيح ومجموعة من تلاميذه ، من بينهم بعض النساء . ثم عثر أحد علماء المصريات الألمان - قبل نهاية القرن الماضى - على مخطوط قبطى معروض فى سوق الأنتيكات بالقاهرة ، يتضمن ما يسمى بإنجيل مريم

المجدلية ، إلى جانب ثلاثة نصوص أخرى وجدت نسخ منها ضمن مكتبة نجع حمادى بعد ذلك ، ثم عثر الأثريون خلال هذا القرن - فى مواضع مختلفة من مصر - على الآلاف من البرديات التى تحتوى على كتابات مسيحية قديمة ، وإن كان أغلبها مدونا باليونانية .

ومما لا شك فيه أن أقدم الكتابات المسيحية الموجودة الآن فى العالم ، بما فى ذلك نسخ العهد الجديد ، وجدت كلهافى أرض مصر ، وليس هناك نص واحد ينتمى إلى القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، تم العثور عليه خارج مصر .

الأناجيل القبطية لا تعرف محاكمة بيلاطس
ولا تعترف بالصليب الذي وضعته كنيسة روما

تتفق أناجيل العهد الجديد الأربعة على أن يسوع مات على الصليب ، بأمر من الحاكم الرومانى لفلسطين « بونتياس بيلاطس » فى ثلاثينات القرن الميلادى الأول . إلا أن هذا الحدث ليس فقط غائبا عن أناجيل نجع حمادى القبطية ، بل يذكر بعضها صراحة هذه القصة ويسخر من قائليها . فلم يرد ذكر الوالى الرومانى بيلاطس فى الأناجيل القبطية التى لا تحتوى على قصة الصلب الرومانى .

جاء فى إنجيل بطرس على لسان بطرس :

« رأيته يبدو وكأنهم يمسكون به ، وقلت : ما هذا الذى أراه يا سيد ؟ هل هو أنت حقا من يأخذون ؟ ... أم أنهم يدقون قدمى ويدى شخص آخر ؟ ... قال لى المخلص : ... من يدخلون المسامير فى يديه وقدميه ... هو البديل . فهم يضعون الذى بقى فى شبهه فى العار . انظر إليه ، وانظر إلى » .

كما ورد فى كتاب « سيت الأكبر » على لسان المسيح قوله :

« كان شخص آخر ... هو الذى شرب المرارة والخل ، لم أكن أنا ... كان آخر الذى حمل الصليب فوق كتفيه ، كان آخر هو الذى وضعوا تاج الشوك على رأسه . وكنت أنا مبتهجا فى العلا ... أضحك لجهلهم » .

وجاء فى كتاب « أعمال يوحنا » الذى عثر عليه بنجع حمادى أيضا ، على لسان المسيح قوله :

« لم يحدث لى أى شئ مما يقولون عنى » .

وبحسب ما جاء فى نص آخر فى مكتبة نجع حمادى بعنوان « مقالة القيامة » ، فإن المسيح مات كأى إنسان آخر ، لكن روحه المقدسة لا يمكن لها أن تموت .

ومع أن الصليب هو رمز للمسيح فى الأناجيل القبطية ، إلا أنه ليس دلالة على الطريقة التى مات بها ، وإنما هو يرمز إلى المسيح الحى - بروحه - التى لا تموت . وعلى ذلك فنحن نجد أن الصليب الذى وجد مرسوما على أغلفة مجلدات نجع حمادى ليس الصليب الرومانى ، وإنما هو « عنخ » مفتاح الحياة عند المصريين القدماء . ومن المؤكد أن الصليب المصرى هو الذى ظل سائداً بين الجماعات المسيحية الأولى ، ليس فى مصر وحدها ، وإنما فى كل بلدان الامبراطورية الرومانية .

ومن يذهب إلى المتحف القبطى فى القاهرة يجد أن مفتاح الحياة هو

الصليب الوحيد الذى يرمز لقيامة المسيح خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد . ولم تستخدم الكنائس المسيحية الصليب الرومانى إلا منذ النصف الثانى من القرن الرابع ، عندما أصبحت كنيسة روما مسيطرة على الحركة المسيحية ، ومع هذا فإن ذلك الصليب لم يصبح مقبولا لدى عامة المسيحيين إلا بعد أن أعلنت الكنيسة الرومانية عن العثور فى مدينة القدس على ما قيل إنه الصليب الخشبى الذى مات عليه يسوع . ثم تطور الأمر بعد ذلك ـ خلال القرن الخامس ـ عندما وضعت الكنيسة الرومانية صورة لجسد المسيح على الصليب الخشبى .

وأثار كتاب « تطور الأناجيل » الذى صدر أخيرا للسياسى البريطانى « إينوك باول » ضجة كبيرة فى العام الماضى ، عندما أعلن الباحث أن قصة صلب الرومان للمسيح لم تكن موجودة فى النص الأصلى للأناجيل . إذ قام باول بإعادة ترجمة إنجيل متى من اللغة اليونانية ، فتبين له أن هناك أجزاء وردت مكررة فى هذا الإنجيل مما يوحى بأنه أعيدت كتابتها فى مرحلة تالية .

وأهم الوقائع المكررة ما ورد فى الجزء الأخير من الإنجيل ، الذى يتعلق بمحاكمة المسيح وصلبه . فقد لاحظ الكاتب أن هذه المحاكمة ، بعد انتهائها أمام الكاهن الاكبر ، تعود فتتكرر مرة ثانية ـ بالكلمات ذاتها ـ مع

فارق واحد أن المحاكمة الثانية - بعكس المحاكمة الأولى - تنتهى بتنفيذ حكم الإعدام فيه عن طريق الصلب - واستنتج الباحث أن استخدام الألفاظ المستعملة نفسها فى المحاكمة الأولى - لصياغة قصة المحاكمة الثانية ، على رغم تغير الظروف ، يوحى بالتكرار المتعمد وليس بالإشارة إلى حدث جديد ، وأعرب المؤلف عن اعتقاده بأن النتيجة الطبيعية للمحاكمة الأصلية أمام مجلس الكهنة - فى حالة الإدانة - لم تكن هى الصلب ، وإنما الرجم بالحجارة .

وقال باول أن قصة صلب المسيح التى وردت فى باقى الأناجيل ، إنما جاءت عن طريق نقل الرواة اللاحقين لما وجدوه فى إنجيل متى بعد أن كان التعديل أدخل عليه ، ولم ترد هذه القصة فى مصدر آخر . وفى رأيه أن إنجيل متى ليس فقط أول الأناجيل وإنما مصدرها الوحيد كذلك .

والمشكلة التى يواجهها الباحثون هى أن الأناجيل الأربعة هى المصدر الوحيد لقصة صلب الرومان للسيد المسيح ، ولو ثبت أن رواية الأناجيل هذه كانت نفسها إضافة لاحقة ولا تمثل حدثا تاريخياً ، فإن هذا سوف يؤدى إلى ضرورة إعادة النظر فى قبول ما ورد فى قصة الأناجيل باعتباره لا يمثل الحقيقة التاريخية للأحداث .

ومع أننا نقترب الآن من نهاية الألف الثانية للتاريخ الميلادى ، إلا أنه يكاد لا يكون لدينا أية معلومات تاريخية مؤكدة عن حياة السيد المسيح

نفسه . وكان الاعتقاد السائد فى ما مضى هو أن كتبة الأناجيل سجلوا أخباراً ووقائع كانوا هم أنفسهم شهودا عليها ، إلا أنه تبين الآن عدم صحة هذا الاعتقاد . فلم تتم كتابة أول الأناجيل التى لدينا الآن إلا بعد مرور حوالى نصف قرن من الزمان على الأحداث التى تتكلم عنها ، ثم أدخلت عليها تعديلات بعد ذلك خلال الأعوام العشرين التالية .

والقصة كما وردت فى أناجيل العهد الجديد تقول إن يسوع ولد فى بيت لحم فى عهد الملك هيرودس ، الذى حكم فلسطين أربعين عاما انتهت بوفاته فى العام الرابع السابق للتاريخ الميلادى . ثم هربت السيدة مريم بابنها إلى مصر عقب ولادته خوفا عليه من بطش الملك ، الذى علم من النبوءات عن مكان وزمان مولد المسيح الذى سيطالب بعرش داوود .

ولم ترجع الأم بولدها من مصر إلى فلسطين إلا بعد موت هيرودس ، فذهبت بالطفل لتعيش فى بلدة الناصرة فى الجليل بشمال فلسطين . وتقول الرواية إنه بعد أن كبر الصبى وأصبح رجلا فى الثلاثين من عمره ، ذهب إلى وادى الأردن حيث التقى هناك بيوحنا المعمدان الذى عمده بالماء فى وسط النهر .

وبعد هذا اعتكف يسوع فى خلوة أربعين يوما صائماً فى الصحراء ، ودخل فى صراع مع الشيطان الذى حاول إغرائه بمنحه ممالك العالم ،

وعاد المسيح ـ بعد أن فشل الشيطان فى مهمته ـ إلى الجليل ليختار حوارييه لإثنى عشر ويبدأ دعوته ، مما أثار حقد الكهنة الصدوقيين اليهود والأحبار الفريسيين عليه .

وازداد غضب الكهنة على يسوع ـ بحسب رواية الأناجيل ـ عندما ذهب إلى مدينة القدس قبل عيد الفصح ، ودخل المعبد وصار يبشر فيه بدعوته . فتآمروا عليه وأرسلوا حرسا للقبض عليه ـ بمساعدة يهوذا الاسخريوطى الحوارى الذى خانه ـ وكان يستريح مع تلاميذه عند جبل الزيتون بشمال المدينة .

واستمر التحقيق والمحاكمة أمام مجلس الكهنة برئاسة « قيافا » الكاهن الأكبر طوال الليل . وبعد انتهاء المحاكمة عند الصباح ، أخذ الكهنة المسيح إلى بيلاطس الوالى الرومانى على فلسطين ، الذى أعاد محاكمته « فسأله الوالى قائلا أنت ملك اليهود ، فقال له يسوع أنت تقول ، وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشئ ، فقال بيلاطس أما تسمع كم يشهدون عليك ، فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالى جدا » .

وحاول بيلاطس ، بحسب ما جاء فى الرواية ، الإفراج عن عيسى بمناسبة عيد الفصح إذ لم يجد مبررا لعقابه ، ولكن رؤساء الكهنة حرضوا الجموع على المطالبة بصلب المسيح فخضع الوالى لرغبتهم .

فأخذه الجند « ولما أتوا إلى موضع يقال له جلجاثة ... أعطوه خلا ممزوج بمرارة ليشربها ولما صلبوه اقتسموا ثيابه ... ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة ... فصرخ يسوع أيضا بصوت عظيم وأسلم الروح » .

وتنتهى القصة الإنجيلية بقيامة المسيح من بين الأموات فى اليوم الثالث ، واختفى جسده من المقبرة التى وضع بها ، ثم ظهر لحوارييه وحثهم على نشر التعاليم المسيحية بين الأمم .

هذه هى القصة بحسب ما وردت فى أناجيل العهد الجديد الأربعة ، ولكن الأمر الغريب هو عدم وجود أية إشارة - ولو بسيطة أو عابرة - عن هذه الأحداث فى المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة ، سواء فى ذلك المصادر الرومانية أو اليونانية أو اليهودية . والمصدر الوحيد الذى جاء به ذكر يسوع المسيح كان كتابات المؤرخ اليهودى يوسيفوس ، ولكن تبين للباحثين منذ القرن السادس عشر أن هذه القصة - التى لا تتجاوز بضعة أسطر - إنما هى إضافة لاحقة إلى الكتاب ولم تكن ضمن النسخ الأولى منه ، فلا شك فى أن بعض الناسخين المسيحيين أضافها فى مرحلة متأخرة .

ولهذا فإن النتيجة التى توصل إليها باول أخيرا من أن النسخة

الأصلية من إنجيل متى لم يكن بها ذكر لصلب المسيح ، لم يعد من الممكن تجاهلها ، وهو يرى أن انجيل متى لا يمثل سردا تاريخيا لحياة السيد المسيح ، وإنما هو فى حقيقته جدل لاهوتى قدم بطريقة الرمز والمجاز . ولهذا فإن تحديد وقت ميلاد المسيح بعصر الملك هيرودس لا يعتبر تحديداً تاريخيا ، لأن التحديد التاريخى - بحسب قوله - عادة ما يذكر اليوم والعام الذى تمت فيه الحادثة ، ولا يكون على إطلاقه . فتعبير « فى أيام الملك هيرودس » يبدو وكأنه بداية قصة وليس تاريخا لواقعة .

والمسألة فى رأيه لا تتعلق بالعقيدة المسيحية نفسها وإنما بدعوى الشرعية التى ارتكزت عليها الكنيسة الرومانية فى سلطتها .

ذلك أن بابا هذه الكنيسة - وهو يمثل الكاهن الأعلى - يستمد سلطته من أنه ممثل السيد المسيح على هذه الأرض . هذا التمثيل - كما تصر الكنيسة - جاء بناء على تفويض أخذته عن طريق المسيح شخصيا . فهم يقولون إن السيد المسيح بعد قيامته فى اليوم الثالث أعطى تلميذه بطرس تفويضا ليخلفه فى إمامة المسيحيين . وإن بطرس سافر قبل موته إلى روما ، لينقل هذا التفويض شخصيا إلى كهنة الكنيسة هناك ، حتى قيل إن مقر الفاتيكان بُنى على ضريحه .

ولا يوجد أى دليل على سفر بطرس إلى روما ، بل إن هناك ما يشير إلى أنه مات فى السجن حوالى عام ٤٠ ميلادية فى القدس .

أما قصة الصليب فمن المؤكد أنها لم تصبح على ما هى عليه الآن إلا بعد فترة طويلة من بداية المسيحية ، ولأن الدعوة المسيحية فى جوهرها تقوم على الاعتقاد فى خلود الروح والقيامة ، وهى الاعتقادات التى كان اليهود يرفضونها ، فقد لجأ المسيحيون الأوائل إلى استعمال مفتاح الحياة « عنخ » المصرى القديم رمزا للمسيح الحى ، وكان هذا المفتاح يرمز فى العالم القديم إلى خلود الروح وقيامة الأموات ، فكان استعماله يدل على أن المسيح - على رغم موته جسديا - لا يزال حيا فى كيانه الروحى ، خالدا لا يموت .

ونحن نجد أنه حتى القرن الرابع الميلادى لم تكن الرسوم المسيحية تعرف الصليب الرومانى ، وكانت تقدم مفتاح الحياة المصرى على أنه رمز للسيد المسيح ، وهذا يتضح من الرسومات الموجودة على أغلفة أناجيل نجع حمادى ، والموجودة الآن بالمتحف القبطى فى مدينة الفسطاط (حى مصر القديمة) ، وكذلك للرسوم الموجودة فى روما نفسها .

إلا أن الكنيسة الرومانية عمدت منذ القرن الرابع إلى استبدال مفتاح الحياة المصرى بشكل الصليب الرومانى ، الذى يمثل العقوبة الرومانية ، ثم تطور الأمر بعد ذلك فأصبحوا يضعون جسدا مصلوبا على هذه

الخشبة . وعلى ذلك ، فلو تبين أن المسيح لم يعش فى فترة الحكم الرومانى وأن بطرس لم يأخذ منه التفويض بالسلطة ، لم يعد هناك أساس لسلطة البابا كخليفة للمسيح .

والذى جعل إينوك باول يحدد تاريخ تدوين النص الأول لإنجيل متى بعد فوات نصف قرن على أحداث القصة هو الإشارة التى وردت به إلى دمار مدينة القدس ومعبدها ، والذى تم عام ٧٠ ميلادية .

فقد جاء أن المسيح فسر هذه الأحداث على أنها كانت عقابا لليهود لإنكار رسالته .

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين ، وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا لما شاركناهم فى دم الأنبياء . فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم قتلة الأنبياء . فاملأوا أنتم مكيال آبائكم ، أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم . لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون فى مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة . لكى يأتى عليكم دم زكى سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه . الحق أقول لكم أن هذا كله يأتى على هذا الجيل . يا أورشليم يا قتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها ... هو ذا بيتكم يترك خرابا ، لأنى أقول لكم أنكم لا تروننى من

الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب » .

وذكر سقوط القدس هنا يشير إلى أن هذا النص لابد وأنه كتب بعد سقوط القدس ، أى بعد عام ٧٠ ، كما لم يصل إلى شكله النهائى الحالى - بعد الإضافات والتعديلات - إلاعند نهاية القرن الميلادى الأول .

كما يقول باول إن ذكر مدينة الناصرة غريب فى ذاته ، فليس هناك دليل على وجود مدينة بهذا الاسم فى أى من المصادر القديمة قبل القرن الميلادى الرابع . والمرجح أن الكلمة الأصلية كانت هى « النصارى » التى تشير إلى اتباع المسيح وليس إلى مدينته .

آباء الكنيسة يتحولون إلي أساقفة ويحددون ما هي التعاليم الصحيحة وما هو هرطقة

ينقسم تاريخ الفترة الأولى للحركة المسيحية إلى أربعة أقسام ، ففى البداية كانت مرحلة الرسل ـ وهم الحواريون من تلاميذ المسيح ـ الذين انتشروا فى الأرض يبشرون الأمم . وهذه المرحلة انتهت بموت بولس الرسول فى روما فى بداية ستينات القرن الأول ، ويقال إن بولس كان من بين الذين لقوا حتفهم على يد الامبراطور نيرون الذى أشعل النيران فى مدينة روما ، واتهم المسيحيين بفعلته .

ثم بدأت المرحلة التى تعرف باسم مرحلة آباء الكنيسة عندما كانت الجماعة المسيحية تنتشر بسرعة فى بلدان العالم الرومانى ، ولكنها كانت تلقائية غير منظمة . وبدأت المرحلة الثالثة منذ نهاية القرن الثانى عندما انقسمت الجماعة المسيحية إلى كهنة وأعضاء ، بل إن الجماعة المسيحية انشقت على نفسها حيث انفصلت الفئات التى رفضت سلطة الكهنة وكونت حركات مضادة ، خاصة فى مصر وبلاد الشام والأناضول .

أما المرحلة الرابعة فتبدأ منذ النصف الثانى للقرن الرابع بعد أن أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية ، وامتدت سلطة كنيسة روما لتشمل كل بلدانها . وهنا تحولت الكنيسة إلى جهاز

منظم واستخدمت سلطة الدولة فى القضاء على الجماعات الخارجة ، كما استطاعت أن تؤثر فى الحياة السياسية ، بل وأن تسيطر عليها كلية بعد ذلك .

ويتضح لنا الآن نتيجة للاكتشافات الأثرية الأخيرة ـ خاصة فى نجع حمادى ـ أنه كان هناك العديد من الكتابات المنتشرة بين صفوف الجماعات المسيحية فى أوائل العصر الميلادى ، إلا أنها أختفت تماما بعد ذلك . فلم تكن الجماعات المسيحية الأولى منظمة بشكل محكم ولا كان لها رؤساء أو كهنة يشرفون على العبادة أو يحددون كيفية تفسير النصوص أو تطبيقها ، وإنما كان لأى واحد منهم ـ سواء فى ذلك الرجال أو النساء ـ الحق فى مخاطبة الجماعة عند التقائها ومحاولة تفسير بعض نواحى الاعتقادات المسيحية . لهذا ظهرت فى تلك الفترة العديد من الطوائف .

ففى الفترة الأولى للحركة المسيحية ، فى المرحلة التى كان فيها تلاميذ المسيح ينشرون الدعوة ، كانت الجماعات المسيحية الجديدة تتكون من مجموعة مختلطة من الناس ، يشاركون فى طقوس العبادة دون تفرقة بينهم ، ولم يكن هناك كهنة فى هذه المرحلة . وبحسب ما جاء فى الإصحاح الثانى من كتاب أعمال الرسل من كتب العهد الجديد فإن

« جميع الذين آمنوا كانوا معا وكان عندهم كل شئ مشترك . والأملاك والمقتنيات كانو يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج . وكانوا كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحدة . وإذ هم يكسرون الخبز فى البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب . مسبحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعوب . وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون » .

كما نرى هذا بوضوح من قراءة الرسائل التى أرسلها الحواريون إلى هذه الجماعات . فقد جاء فى بداية رسالة بولس الأولى إلى جماعة أهل مدينة كورنث فى الإصحاح الأول : « بولس المدعو رسولا ليسوع المسيح بمشيئة الله وسوستانيس الأخ ، إلى كنيسة الرب التى فى كورنث المقدسين فى المسيح يسوع المدعوين قديسين مع جميع الذين يدعون باسم سيدنا يسوع المسيح فى كل مكان لهم ولنا » . ومن الواضح هنا أن بولس الرسول يخاطب كل فرد من جماعة كورنث المسيحية على أنهم أخوة ، دون تفرقة ، ولا يخص شخصا بعينه على أنه يمثل هذه الجماعة .

ولما كانت هناك بعض الطقوس التى تتطلب قيام شخص ما بالإشراف عليها ، مثل التعميد بالماء والإشراف على احتفال العشاء الربانى وعيد القيامة ، فقد جرى العرف على قيام أكبر أعضاء الجماعة سنا بهذا الدور . ومع مرور الزمن بدأ آباء الكنيسة يحولون دورهم فى الجماعات

المسيحية إلى دور قيادى ويؤكون سلطتهم فى تفسير النصوص ، بل وفى إصدار نصوص جديدة ، وحرموا على أعضاء الجماعات الخروج على تعاليمهم أو الاختلاف معهم فى تفسيراتهم . ومنذ منتصف القرن الميلادى الثانى بدأ الآباء يوجهون انتقاداتهم لمن يخالفهم الرأى ، ويطلبون منهم إما الالتزام بتعاليمهم أو ترك الكنيسة .

ولهذا فقد ظهر انقسام كبير داخل الجماعات المسيحية التى كانت تعانى من اضطهاد الرومان لها فى ذلك الوقت . وحدد الآباء ما يجب على الأعضاء قبوله ، وأعلنوا الشهادة التى يتوجب على كل مسيحى إعلانها لقبوله فى الجماعة التى اعتبرت نفسها « أورثونوكس » ، أى تتبع الطريق الصحيح ، و « كاثوليك » أى عالمية . إلا أن بعض الجماعات المسيحية - خاصة فى مصر - رفضت قبول نص الشهادة ، بل إنها رفضت سلطة الآباء عليها ، إذ اعتقدت بأنها سلطة مغتصبة غير شرعية . عندئذ أعلن الآباء أن الرافضين لسلطتهم يعتبرون هرطوقيين خارجين على الطريق الأورثوذكسى السليم .

وكان الأسقف « إيرينيوس » كاهن كنيسة مدينة ليون ، أول من أصدر كتابا فى خمسة أجزاء عام ١٨٠ يهاجم فيه جماعات الرافضين لسلطة الكهنة ، ويطالب بالقضاء على « ما يسمى زيفا بالمعرفة » ، جاء فى

مقدمته أن سبب كتابته كان : « لتبيين آراء أولئك الذين يقومون الآن بتعليم الهرطقة ... ولإظهار كيف أن تصريحاتهم مناقضة للحقيقة وغير معقولة ... وأنا أعمل هذا حتى ... يمكنكم حث من أنتم على اتصال بهم للابتعاد عن مثل هذا الكفر والجنون ».

وذكر إيرينيوس من بين الكتب المزيفة التى يتحدث عنها كتابا بعنوان « إنجيل الحقيقة » تم العثور على نسخة منه فى مكتبة نجع حمادى . بعد ذلك بخمسين عاما نشر « هيبوليتوس »، وكان مدرسا فى روما ، كتابا بعنوان « تفنيد الهرطوقيين » ليكشف - حسب قوله - زيف الهرطوقيين ويفند مزاعمهم . وحتى يوضح الآباء ما يعتبر صحيحا من الاعتقادات وما هو هرطقة فقد قاموا أولا بتحديد الاعتقادات الزائفة فى رأيهم ، ثم وضعوا قواعد الفكر السليم .

أصبح اسم « العارفين » يطلق على الخارجين على تعاليم الآباء بسبب بحثهم عن المعرفة ، إلا أن المعرفة المقصودة هنا ليست هى المعرفة الفكرية أو الحسية وإنما هى نوع من الرؤيا الروحية التى تهدف إلى إدراك الروح الإلهية عن طريق معرفة الذات. فمعرفة النفس عند العارفين هى الطريق لمعرفة الرب ، حيث إن النفس الإنسانية عندهم جزء من الروح الإلهى .

ويختلف العارفون مع الأساقفة فى عدة نقاط جوهرية ، فبينما يقول الآباء بأن يسوع هو ابن الرب ذو طبيعة تختلف عن باقى البشر ، فإن إنجيل توماس يقول بأن كل من يستطيع أن يدرك المعرفة الحقة ، يصبح مثل يسوع :

« قال يسوع (مخاطبا توماس) : أنا لست سيدك ، لأنك شربت ، وأصبحت شاربا من جرير المجرى الذى نظمته أنا ... وكل من يشرب من فمى يصبح مماثلا لى ... وتتكشف له الأشياء الخفية » .

ونحن نجد أن يسوع - فى كتابات نجع حمادى - لا يتحدث إلى تلاميذه عن الخطيئة والغفران ، كما يتحدث عنها آباء الكنيسة ، وإنما عن الجهل والمعرفة . فالخلاص عند العارفين يأتى عندما يتعرف الإنسان على طبيعة كيانه الروحى ويدرك أن الخلود للروح وليس للجسد ، الذى يعتبرونه رداءً مؤقتا . وعلى هذا فإن قيامة المسيح من الأموات عندهم لم تكن قيامة جسدية وإنما قيامة روحية ، فليس هناك فى كتابات العارفين ما يدل على أن المسيح قد التقى بتلاميذه لقاءً جسديا ، وإنما ظهر لهم فى تجربة روحية .

وعندما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية فى النصف الأول من القرن الرابع للميلاد ، أصبحت الديانة

الجديدة هى الديانة الرسمية للإمبراطورية ، وتحول كهنة الكنيسة من أشخاص مطاردين من الشرطة التى كانت تضطهدهم ، إلى رؤساء يصدرون أوامرهم إليها . عندئذ قام الكهنة باستعمال سلطتهم الجديدة للقضاء على الجماعات المخالفة لتعاليمهم ، فأصدروا أوامرهم بتحريم الكتب المخالفة وحرقها واعتبار حيازتها جريمة يعاقب عليها القانون . وكانت مكتبة الإسكندرية من بين ما تم حرقه بناء على تعاليم كهنة روما فى النصف الثانى من القرن الرابع ، فى نفس الوقت الذى تم فيه إخفاء مجلدات نجع حمادى فى صعيد مصر . فقد أدرك الرهبان المصريون الذين كانوا يقيمون فى دير القديس « باخوميس » فى منطقة نجع حمادى مدى الخطر الذى يتعرضون إليه لحيازتهم هذه الكتب ، ولم يرغبوا فى إشعال النيران بها ، فحفظوها فى زلعة كبيرة أخفوها فى الكهف بين قبور الأجداد .

ومع نهاية القرن الثانى كانت الجماعة المسيحية قد تم تنظيمها على أساس جديد من انفصال الجماعة المسيحية إلى كهنة مسئولين وحدهم عن تنظيم العبادة والاعتقاد وجمهور المؤمنين ، وأصبح لكل كنيسة

أسقفاً وعدد من الكهنة والشمامسة ، وقال الأسقف إير ينيوس إن هذه الكنيسة تعتبر « أورثونوكس » بمعنى أنها صاحبة التفكير السوى ، وهى كذلك تعتبر « كاثوليكيـة » أى أنهـا ذات طبيعة عالمية ، وأنـه لا توجد كنيسة أخرى ، « فليس هناك خلاص خارجها » . كما تم تحديد الكتابات والأناجيل التى يصح الرجوع إليها وهى التى تسمى فى مجموعها « العهد الجديد » ، كما وضع نص للشهادة أصبح على كل عضو بالكنيسة الاعتراف به ، يتضمن إعلان أن المسيح ولد لأم عذراء وأنه من مدينة الناصرة مات بأمر من بونتياس بيلاطس الحاكم الرومانى وقام جسديا من بين الأموات فى اليوم الثالث . وعلى هذا فإن الاعتقاد المسيحى الذى كان فى بدايته على قبول فكرة واحدة - إلا وهى قيامة المسيح - أصبحت الآن تتطلب أشياء أخرى مثل قبول سلطة الكهنة وقبول فكرة الصلب الرومانى كشرط أساسى لم يكن قائما بين الجماعات المسيحية من قبل .

وعندما رفض فقهاء العارفين قبول سلطة الكهنة ، حيث إنها لا تعتمد على شئ من تعاليم المسيح أو تلاميذه الأوائل ، نشرت كنيسة روما قصة تقول بأن بطرس الرسول عندما اختفى من القدس عند منتصف القرن الأول ، جاء إلى روما وأعطى آباءها تفويضا ليكونوا ممثل المسيح على الأرض . ظهرت هذه القصة للمرة الأولى خلال القرن الثانى على شكل

رواية أسطورية ، ولكنها سرعان ما تحولت إلى جزء أساسى من تاريخ كنيسة روما ، حتى أنه فى العصر الحديث - خلال القرن العشرين - قام الفاتيكان بأعمال حفر تحت المبنى الرئيسى بروما ، وأنيع أنه تم العثور على عظام بطرس مدفونة هناك . وبصرف النظر عن مدى صحة هذه الواقعة ، لكن الكهنة استطاعوا كسب الموقف لصالحهم نتيجة لهذا الاعتقاد ، حتى إنهم خلال القرون الوسطى ، كانوا يتمادون فى استعمال هذه الرخصة عن طريق إصدار صكوك الغفران باسم المسيح .

ونجحت خطة أساقفة روما فى القضاء على كل الكتابات المخالفة لتعاليمهم ، إلى أن تم العثور على مكتبة نجع حمادى القبطية بصعيد مصر منذ نصف قرن من الزمان . فطوال ١٩ قرنا لم تكن هناك أية معلومات عن الجماعات المسيحية الأولى التى اختفت إلا عن طريق كتابات خصومهم من الأساقفة . إلا أن العثور على مكتبة نجع حمادى فتح الطريق للتعرف على طبيعة الاعتقادات المسيحية التى انتشرت خلال القرنين الأولين من التاريخ الميلادى ، والتى كانت تختلف إلى حد كبير عن النظام الذى نشأ بعد ذلك .

مخطوطات نجع حمادي

ما هو التاريخ الحقيقي لظهور اللغة القبطية ولماذا يتم إخفاؤه

كانت الهيروغليفية هى أول نوع من الكتابة ظهر فى مصر مع بداية العصور التاريخية - منذ حوالى ٥٣٠٠ سنة - وهى تعتمد على رموز من الأشكال المرسومة للإنسان والحيوان والجماد . ولما كان هذا النوع من الكتابة يحتاج إلى الدقة فى تنفيذه ويتطلب وقتا طويلا لكتابة نص صغير ، فقد أصبح مقصورا فى استعماله على أعمال المعابد والمقابر . وظهر نوع مبسط من الكتابة عرف باسم هيراطيقى ، يكتفى برسم جزء من الحرف الهيروغليفى للدلالة على هذا الحرف ، وهذا هو الأسلوب الذى استخدم عادة فى كتابة البرديات لتدوين أعمال الحكومة والأفراد . ثم ظهر فى العصور المتأخرة للتاريخ المصرى نوع ثالث من الكتابة أكثر تبسيطا ، عرف باسم الديموطيقى ، حل مكان الهيراطيقى فى كتابة البرديات .

إلا أنه منذ قيام الدولة البطلمية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، أصبحت اللغة اليونانية مستخدمة إلى جانب اللغة المصرية فى الكتابة ، بسبب الأصل الإغريقى للعائلة الحاكمة . كما أن اليونانية كانت قد أصبحت فى

تلك الفترة بمثابة اللغة العالمية للتخاطب بين الشعوب ـ مثلها فى ذلك مثل الإنجليزية فى عصرنا الحاضر ـ نتيجة لسيطرة الإغريق على غالبية الممالك القديمة . وفى هذه الفترة كان على الكتبة المصريين أن يتعلموا اللغة اليونانية إلى جانب تعلم لغتهم الأصلية ، مما أدى إلى ظهور طبقة منهم تجيد استخدام اللغتين معا ، كم يتضح من النصوص الموجودة على حجر رشيد الشهير .

ثم ظهر نوع جديد من الكتابة المصرية بعد ذلك ، عندما حاول المصريون كتابة لغتهم عن طريق استخدام حروف اللغة اليونانية ، عرف باسم الكتابة القبطية ، التى اعتمدت على حروف الأبجدية اليونانية مع إضافة سبعة أحرف من الأبجدية المصرية القديمة إليها . وبالرغم من العثور على الآلاف من النصوص القبطية الموزعة الآن على المتاحف العالمية ، إلا أن تاريخ ظهور هذه اللغة لا يزال محاطا بالغموض .

فمن الطبيعى أن نتصور ظهور القبطية بين أفراد الشعب المصرى ، فى الوقت الذى كانت فيه العائلة المالكة من أصل يونانى ، كما كانت اللغة اليونانية لغة رسمية خلاله ، إلا أن الباحثين الحديثين يصممون على إرجاع اللغة القبطية إلى فترة متأخرة فى القرن الميلادى الثالث ، أى بعد انتهاء الحكم البطلمى بأكثر من قرنين من الزمان ، فى وقت كانت فيه البلاد قد أصبحت خاضعة للسلطة الرومانية، والسبب الرئيسى فى تحديد

هذا الوقت المتأخر لظهور القبطية لايرجع إلى معلومات تاريخية معينة أو إلى أى دليل ذى طابع تاريخى ، وإنما إلى سبب واحد له علاقة بتاريخ انتشار الديانة المسيحية بين أفراد الشعب المصرى . فالاعتقاد الشائع بين الباحثين الغربيين ـ اعتمادا على مصادر الكنيسة الرومانية ـ هو أن المصريين لم يعتنقوا الديانة الجديدة إلا منذ القرن الثالث . ذلك أن النصوص القبطية انتشرت بين الفئات المصرية وحدها ، فليس من المعقول ظهور هذه الكتابات قبل تحول الشعب المصرى إلى الديانة المسيحية . وبدلاً من قبول الدلالة الطبيعية للنصوص التى عثر عليها والاعتراف بانتشار المسيحية بين المصريين منذ وقت مبكر ، أرجع الباحثون الغربيون تاريخ ظهور اللغة القبطية نفسها إلى وقت متأخر يتفق مع اعتقاداتهم الخاصة .

وبالرغم من أن « يوسيبيوس » أسقف « قيصرية » بفلسطين ، ذكر فى كتابه عن تاريخ الكنيسة ـ الذى وضعه خلال القرن الرابع ـ أن القديس مرقص الإنجيلى الذى كتب ثانى أناجيل العهد الجديد ، هو الذى أقام أول كنيسة بالأسكندرية ، إلا أن الباحثين الغربيين يصممون على أن هذه الكنيسة كانت وقفا على اليهود واليونان ولم يكن بها مصريون ، ويعتبر الأقباط المصريون أن القديس مرقص هو مؤسس كنيستهم ، ويقولون إنه مات مقتولاً بالأسكندرية عام ٦٣ ، وتم دفن جسده تحت مذبح كنيسة

بطرياركية الأسكندرية القديمة . كما قيل إن الرومان أخذوا عظامه بعد ذلك بعدة قرون ، ودفنوها أسفل كنيسة سانت مارك بمدينة فينيسيا . وأنا لا أدرى لماذا يصمم الغربيون على أن مرقص لم يكن - هو نفسه - مصريا ، وإنما جاء من بلد آخر ليعيش بالاسكندرية ، بينما ليس هناك أية معلومات عن مولده فى مكان آخر أو علاقة له بمدينة أخرى ، فمن الطبيعى أن يعيش الإنسان أواخر أيام حياته فى وطنه ، الذى يكون فيه مدفنه .

بل إن يسيبيوس حدد تاريخ وصول مرقص إلى مصر بأنه كان فى أوائل حكم الإمبراطور كلوديوس الرومانى ، أى فى أوائل أربعينات القرن الأول ، قبل أن يبدأ بولس الرسول رحلاته التبشيرية . وعلى هذا تكون الكنيسة المصرية أسبق من غالبية الكنائس التى ظهرت فى بلدن العالم الرومانى ، قبل نشأة كنيسة روما نفسها . بل إن كتاب أعمال الرسل - من كتب العهد الجديد - يتحدث عن خروج المبشرين المسيحيين من مصر ، لنشر المسيحية فى العالم الرومانى منذ تلك الحقبة . فقد جاء بالاصحاح الثامن عشر أن شخصا اسمه أبلوس وصل إلى مدينة أفسس وكان « إسكندرى الجنس ، رجل فصيح مقتدر فى الكتب . كان هذا خبيرا فى طريق الرب وكان وهو حار (متحمس) بالروح يتكلم ويعلم بتدقيق ما يختص بالرب عارفا معمودية يوحنا فقط . وابتدأ هذا يجاهر فى المجمع ... (وكان) يفحم اليهود جهرا مبيناً بالكتب أن يسوع هو المسيح ».

وترجع أول محاولة وصلتنا لكتابة اللغة المصرية القديمة عن طريق استخدام حروف الأبجدية اليونانية ، إلى أوئل القرن الثالث السابق للميلاد . ففى هذه الفترة بدأت المرسومات الملكية تصدر بكلتا اللغتين المصرية واليونانية ، فبدأ الكتبة يستخدمون الحروف اليونانية لكتابة أسماء الأعلام المصرية ، مثل أسماء الأشخاص والمدن والمعابد . وكانت هذه هى المحاولة الأولى لاستخدام الحروف اليونانية فى كتابة اللغة المصرية ، والتى تطورت بعد ذلك لتصبح لغة مستقلة هى اللغة القبطية . وكانت المرحلة الثانية فى تطور هذه الكتابة عندما نشب تمرد فى صعيد مصر ضد سلطة الملوك البطالمة بالاسكندرية عند بداية ذلك القرن ، فقد قام شخص من بلاد النوبة يدعى « حارمخيس » عام ١٩٩ ق م بالاستيلاء على معبد حورس بمدينة ادفو ، ثم سار بجيشه شمالا وقام بطرد الحامية العسكرية اليونانية من طيبة . ثم خلفه شخص آخر ـ له نفس الاسم حار مخيس ـ الذى أعلن نفسه ملكا فى طيبة ، وظل مسيطرا عليها حتى عام ١٨٦ ق م . وفى هذه الفترة قام هذا المتمرد بعمل لوحة بمعبد أوزوريس بأبيدوس كتب عليها نصا مصريا بالحروف اليونانية ، جاء بـه : « العام الخامس لحكم الفرعون حور جو نفر ، محبوب إيزيس وأوزوريس » .

وتمتاز هذه المرحلة بأن الكتبة كانوا يتبعون نظم القواعد المصرية

ويلتزمون بمفرداتها ، وإن كتبوها بالأحرف اليونانية . إلا أنه حدث تطور آخر بعد ذلك ، إذ بدأت هذه الكتابة تستخدم مزيجا من المفردات المصرية واليونانية ، كما اقتبست كذلك بعض تركيبات القواعد اليونانية ، فأصبحت لغة مستقلة بذاتها عن كل من المصرية واليونانية . ومع بداية القرن الثالث الميلادى نجد أن القبطية قد أصبحت لغة أدبية متطورة لها خمس لهجات مختلفة ، مثل الأخميمية والصعيدية والبحرانية . ومن الطبيعى فى هذه الحالة أن يكون نمو اللغة القبطية وتطورها قد استمر بشكل تدريجى منذ ظهور المحاولات الأولى فى القرن الثالث السابق للميلاد ، وحتى حلولها محل اللغة الديموطيقية تماما فى القرن الرابع الميلادى .

إلا أن ما يصر عليه الباحثون الغربيون ، يعنى أن المراحل الأولى للغة الجديدة اختفت تماما بعد ظهورها ، ثم عادت فظهرت لغة متكاملة فجأة بعد خمسة قرون . وطبيعى أن يكون هذا التفسير غير مقبول ، إلاأنه يتفق مع ما حددوه لانتشار الحركة المسيحية بين المصريين ، حيث إن غالبية الكتابات القبطية كانت تتعلق بهذه الديانة . وعلى هذا فإن اكتشاف المجلدات القبطية بنجع حمادى لابد وأن يؤدى إلى إعادة النظر فى تحديد تاريخ ظهور اللغة القبطية وتطورها ، والذى لابد وأن يكون قد حدث بشكل تدريجى مستمر ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادى .

وبالرغم من أن رجال اللاهوت الغربيين قابلوا المعلومات الجديدة التى وصلتنا عن طريق المجلدات القبطية بالرفض وعدم الاكتراث ، فإن كل الدلائل تشير الآن إلى أن تطورا جوهريا بدأ يأخذ مجراه فى عالم الدراسات الإنجيلية ، سوف يكون له أكبر الأثر فى تغيير كل ما كان متفقا عليه من قبل عن تاريخ تطور الحركة المسيحية خلال القرنين الأولين للميلاد . وكما قال لى الأستاذ هيلموت كويستر - أستاذ التاريخ المسيحى بدفينيتى كوليدج بجامعة هارفارد الأمريكية - إن مكتبة نجع حمادى فرضت علينا إعادة كتابة تاريخ ظهور المسيحية ، وأكد أنه شخصيا بدأ فى إعادة كتابة أعماله السابقة على ضوئها .

وأول ما يجب أن يتم هو التعرف على القصة الحقيقية لنشأة الكنيسة المصرية ، ولأى مدى كان الاضطهاد الذى لاقاه المصريون ، أولا على يد الرومان الوثنيين ثم بعد ذلك على يد كنيسة روما . فحتى تصبح عاصمة الإمبراطورية روما هى كذلك مركز الديانة الجديدة ، عمل أساقفتها على اضطهاد الجماعات المسيحية فى مصر واتهامها بالهرطقة . ولا شك أن العذاب الذى لقيه الأقباط المصريون على يد كنيسة روما كان أشد مما عانوه فى أى مرحلة سابقة ، وهو ما يفسر استقبالهم الحار لقوات الجيش الإسلامى عند وصولها إلى مصرعام ٦٤٠ بقيادة عمرو بن العاص ، بعد أن طرد جيوش الرومان

وأعاد الكنائس المصرية إلى يد أساقفة الأقباط .

إلا أن هناك من المسائل التى تدل عليها كتابات نجع حمادى ما يحتاج إلى بعض الوقت لفهم مغزاه أو لقبول دلالته . فهناك اختلاف رئيسى بين اعتقادات جماعات العارفين المسيحية الأولى وبين الاعتقادات التى أصبحت سائدة بين الكنائس هذه الأيام . فليس هناك فى نجع حمادى ما يشير إلى أن يسوع المسيح قد كانت ولادته فى مدينة بيت لحم أو أن لمولده علاقة بفترة حكم الملك هيرود . بل إنه لم يرد فى كل كتابات نجع حمادى البالغ عددها ٥٢ كتابا ، أى ذكر عن زيارة المسيح لمدينة القدس أو لقائه مع يوحنا المعمدان عند نهر الأردن . وليس هناك أى دليل على أن جماعات العارفين كانت تعرف شيئا عن أن يسوع المسيح جاء من مدينة الناصرة أو أنه كان نجارا أو صياداً أو أياً من هذه الأعمال التى تنسب إليه ، كما تختلف كتابات نجع حمادى كذلك فى أنها لا تقصر عدد تلاميذ المسيح على اثنى عشر حوارياً ، بل إن هناك عديدين من التلاميذ ، ومن اللافت للنظر أن نجد فى كتابات نجع حمادى إشارات إلى أن بعض الحواريين كانوا من المصريين ، وليس من يهود فلسطين ، مثل توماس (تحتمس) كاتب الأقوال . وليست مريم المجدلية فى نجع حمادى من الخاطئات ، بل هى من أقرب التلاميذ إلى المسيح الذى كان حبه لها يفوق حبه لأى منهم ، ولها إنجيل خاص باسمها فى هذه المكتبة .

وأهم من هذا هو إنكار العارفين لقصة الصلب الرومانى للمسيح ، واعتبارهم مفتاح الحياة المصرى هو رمز قيامته ، وهم يقولون بأن المسيح لم يظهر بجسده لأى من التلاميذ وإنما كان ظهوره لهم جميعا ظهورا روحيا بعد قيامته .

وفى ختام هذه الدراسة عن مكتبة نجع حمادى القبطية أرجو أن يهتم المثقفون العرب بالاشتراك فى الأبحاث والدراسات التى تتعلق بتاريخهم وتراثهم ، وألا نستمر مجرد متفرجين لا دور لنا فى كتابة تاريخنا .

وأختم هذا الكتيب بقولين وردا فى إنجيل توماس على لسان المسيح :

« ليستمر الباحث فى بحثه حتى يجد ، ولسوف يصبح مشغولا عندما يجد . وعندما ينشغل فإنه سيصبح مندهشا ، وهو عندئذ سوف يحكم على الجميع . قال يسوع : إذا قال لكم رؤسائكم : انظروا المملكة فى السماء ، فسوف تسبقكم طيور السماء (إليها) . وإذا قالوا لكم إنها فى الماء ، فإن الأسماك ستسبقكم . إنما المملكة بداخلكم ... وعندما تتعرفون على أنفسكم ، عندئذ ستصبحون عارفين ... ولكن إذا لم تعرفوا أنفسكم ، فلسوف تعيشون فى فقر وإنكم لأنتم هذا الفقر نفسه » .